الفصل الأول:

القيم الموضوعية في شعر نجيب الكيلاني

obeikandl.com

القيم الموضوعية في شعر الكيلاني

يبدو الحديث عن فنون الشعر أو أغراضه أمرًا غريبًا على أذن بعض النقاد، ولا سيما أولئك الذين يُعنونَ فحسب بالقيم الشكلية في الشعر، ولا يشغلهم من المقول: ماذا يقال؟، بل يشغلهم منه: كيف يقال؟؛ إذ الأغراض الشعرية-عندهم-كالمذاهب النقدية في العصر الحديث "لا تغني قليلا في الدلالة على شعر الشاعر، والإلحاح عليها وتقريرها في كل مجال ضرب من الهرب لا يستقيم معه قول، ولا تصح به قضية"[60].

والواقع أنه لا مندوحة أمام الناقد من النظر إلى النص الأدبي في مستوييه المختلفين المتكاملين بآن معًا: الشكل والمضمون، وإن أي اهتمام بأحدهما وإغفال للآخر سيكون على حساب الرؤية المتكاملة للنص، ولقد وضع هيجل-كما يقول أستاذنا الدكتور محمد فتوح-سن قلمه على أخص خصائص النص الأدبي، من حيث هو توتر دائم، وجدل مستمر على شتى الأصعدة، وفي كافة المستويات-حين أطلق مقولته الذائعة "ليس الشكل إلا مضمونا متحولا إلى شكل، وليس المضمون إلا شكلا متحولا إلى مضمون"[61]، أضف إلى ذلك أن العناية بالقيمة أو الرسالة في الشعر ذات نسب عريق في تراثنا، وذلك ما يؤكده ناقد معاصر بقوله: "لقد كانت فكرة رسالة الشعر أو وظيفته فكرة جليلة على امتداد تاريخ هذا الشعر، ولست أرتاب لحظة في ضرورة استمرارها، وإن كنت أتمنى أن تؤازرها فنية عالية... وليس صوابا لا يفارقه الخطأ ما تداولناه طويلا من الحديث عن "كيفية القول"، لأن هذه الكيفية فاتنة مراوغة، ولا بد لتصفيتها من الشوائب أن نحدها بحد، وليس هذا الحد سوى "ماذا نقول"[62].

([60])-د. لطفي عبد البديع: الشعر واللغة، الشركة العالمية للنشر (لونجمان)، الطبعة الأولى 1997م، ص 94.

([61])-انظر: د. محمد فتوح أحمد: جدليات النص الأدبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة، الطبعة الأولى 2007م، ص 314.

([62])-د. وهب رومية: الشعر والناقد من التشكيل إلى الرؤيا، عالم المعرفة، عدد (331)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت 2006م، ص 20.

من مثل تلك الحقيقة النقدية: (تآزر المضمون والأداء/ الرؤية والإجراء) يستمد ذلك الفصل أهميته، ويحاول الوقوف على آفاق الرؤية أو الرسالة الشعرية عند الكيلاني؛ لتكون مهادًا إلى عناصر الإجراء، وأدوات التشكيل الفني فيما يلي من فصول.

أما شعر الكيلاني فهو صورة صادقة لحياته بأفراحها وأتراحها وآمالها وآلامها، وقد تناول فيه شاعرنا عددًا من الموضوعات أو الأغراض، يمكن تصنيفها-إجمالًا-إلى أغراض خاصة بأمته الإسلامية، وأغراض خاصة بنجيب الكيلاني نفسه، ويمكن تصنيفها-تفصيلًا-إلى ما يأتي:

1- الوطنيات والسياسيات.
2- السجنيات الشعرية.
3 - مدح ورثاء.
4 - الغزل.
5- صوفيات.
6 - الشكوى.
7 - الحنين.
8- رسالة الفن.

مع ملاحظة أن هذا التقسيم ليس حاسمًا أو فاصلًا؛ إذ كثيرًا ما تتداخل الأغراض في قصائده، فقد نجد الوطنيات والسياسيات في قصيدة تحمل طابع المدح أو الرثاء، وقد نجد حديثًا عن السجن أو ما يتعلق به في قصيدة تحمل طابع الغزل، كما أن هناك أغراضًا جاءت في شعره من قبيل الإلماع ولم تبلغ مبلغ الظاهرة، وفيما يأتي عرض لهذه الأغراض في شعره.

obeikandl.com

المبحث الأول: الوطنيات والسياسيات

يمثل الشعر الوطني والسياسي القدر الأعظم من شعر نجيب الكيلاني، على أن يفهم الوطن فهمًا إسلاميًا شاملًا، فليس الوطن عند شاعرنا عبادة أرض وحدود، أو تقديس جنس وقوم، بل يتسع أفق شاعرنا ليتجاوز النطاق المحلي الضيق، فتصبح الأمة الإسلامية والعربية-بل العالم كله-وطنًا له ودارًا، ومن ثم عاش الكيلاني مهمومًا بقضايا أمته العربية والإسلامية، يقول الكيلاني موضحًا حدود وطنيته:

لا تَسْأَلُوا عَنْ دِيَارِي أَيْنَ مَوْقِعُهَا ... مُحَمَّدٌ سَيد الأَكْوَانِ عُنْوَانِي

وَحَيْثُمَا ارْتَفَعَتْ لله سَارِيَةٌ ... أَلْقَيْتُ رَحْلِي وَآمَالِي وَرُكْبَانِي

"وَلَسْتُ أَبْغِي سِوَى الإِسْلامِ لِي وَطَنًا ... الشَّامُ فيهِ وَوَادِي النِّيلِ سِيَّانِ"

هَذِي الْحُدُودُ التِي عَاقَتْ تَوَحُّدَنَا ... أَنَّى تَوَجَّهْتُ أَلْقَاهَا وَتَلْقَانِي[63]

ويقول:

الحُبُّ والزُّهْدُ زَادِي ... وَكُلُّ أَرْضٍ بِلادِي

وَمِنْ ثَرَاهَا وِسَادِي ... وَلا أَدِينُ وَرَبِّي

لِحَاضِرٍ أَوْ لِبَادِي[64]

ولم يكن هذا المفهوم الشامل وقفًا على شعره فحسب، بل ظهر فيما أبدعه من روايات تعالج قضايا العالم الإسلامي في واقعه المعاصر، كرواية "ليالي تركستان" التي يعالج فيها جهاد شعب تركستان المسلم ضد الشيوعيين من الروس والصينيين، ورواية "عمالقة الشمال" التي تناول فيها قضية الفتنة الطائفية التي تعرضت لها نيجيريا، وفي رواية "عذراء جاكرتا" يتناول الجهود التي بذلها رجال الدعوة الإسلامية للقضاء على الخطر الشيوعي الذي انتشر في إندونيسيا في الفترة

([63])-ديوان "مدينة الكبائر": 54.

([64])-ديوان "أغاني الغرباء": 22.

الأخيرة من حكم سوكارنو[65]، ولا شك أن هذا الاتجاه ينبئ عن سعة أفق الأديب من جهة، كما يمنح "الإحساس بوحدة الوجدان الإسلامي في العالم كله"[66] من جهة أخرى، وقد تناول الكيلاني في شعره قضايا سياسية ووطنية، أهمها ما يأتي:

1 – الأوطان السليبة:

شغلت تجربة الكيلاني الشعرية حيزًا زمنيًا ممتدًا، بدأ سنة 1949[67] على أقل تقدير، واستمر حتى بداية التسعينيات من القرن المنصرم، وهي فترة مرَّ فيها العالم الإسلامي بأحداث جسام، وشهدت بعض بلاده عدوانًا غشومًا من الدول الطامعة فيه، فقد اشتبك العرب مع اليهود في ثلاثة حروب: سنة 1948 ، وسنة 1956، وسنة 1967 مُنِيَ العرب خلال هذه المعارك بهزائم شائنة، وكانت كل هزيمة أسوأ من سابقتها وأشد نكرًا، ودخل الروس والأفغان في حرب ضروس سنة 1979[68]، كما عدت العراق على أختها الكويت في أغسطس 1990[69]، وقد حظيت هذه الأحداث باهتمام شاعرنا، وإن تفاوتت بالطبع في حظها من هذا الاهتمام.

كان العدوان الصهيوني على فلسطين في مقدمة هذه القضايا التي اهتم بها "الكيلاني"، واحتلت قضية فلسطين مساحة واسعة من شعره، ولا غرابة في هذا، فإن القرن الماضي على امتداده لم يعرف "قضية شغلت الضمير العربي وأرقته، ورهنت السياسات القطرية بها، ولا سيما في المشرق العربي، كقضية فلسطين، وعلى الرغم من اختلاط هذه القضية بقضية الجولان وسيناء بعد نكسة 1967 م فإنها لم تفقد شيئًا من الاهتمام بها، بل ظلت لب الصراع العربي – الإسرائيلي وجوهره وعنوانه"[70]، كما أن الكيلاني رجل تربى في أحضان جماعة "الإخوان المسلمين" وهي جماعة جعلت هدفها

---

(65)–انظر: نجيب الكيلاني: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، ص 47ـ 49.

(66)–د. عماد الدين خليل: محاولات جديدة في النقد الإسلامي، مؤسسة الرسالة–بيروت، الطبعة الأولى: 256.

(67)–هذا تاريخ أول قصيدة نشرت له بمجلة "الإخوان المسلمون" عدد 222، وإن كان قد بدأ نظم الشعر قبل هذا التاريخ.

(68)–انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ج 8، ص 239.

(69)–انظر: د.علي جريشة: حاضر العالم الإسلامي ، ص 346.

(70)–د. وهب رومية: الشعر والناقد، سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية ع 331، ص 16، 17.

الأول: "أن يتحرر الوطن من كل سلطان أجنبي"[71]، وأولت قضيةَ فلسطين اهتمامًا بالغًا، وبذلت في سبيلها الأموال والدماء، فضلًا عن أن شاعرنا قد أتيح له أن يزور فلسطين مرتين[72]، استطاع من خلالهما أن يلم بأوضاع الفلسطينيين عن كثب، وتمخض ذلك عن عدد من أعماله الأدبية عن فلسطين منها[73]:

1- رواية "أرض الأنبياء".
2- رواية "عمر يظهر في القدس".
3- رواية "دم لفطير صهيون".
4- عدد من القصص القصيرة، بعضها في مجموعة "عند الرحيل".
5 – بعض أجزاء في روايات أخرى... مثل "الطريق الطويل"، و"رمضان العبور" وغيرها.

كان حادث سقوط فلسطين في قبضة اليهود أهم ما استرعى انتباه الكيلاني بوصفه شاعرا؛ ولذا نراه يتوقف مليًّا أمام تلك الفجيعة، فيقيم مفارقة أليمة بين أمس زاهر وحاضر منكود ذليل، من خلال الإشارة إلى القائد المسلم "صلاح الدين الأيوبي" الذي قلم أظافر الصليبيين، واليوم يستباح قبره، ويعربد اليهود في القدس ويدنسون مسجدها:

سَقَطَتْ عَذْرَاءُ التَّارِيخِ الأَعْظَم
فِي قَبْضَةِ مُومِس
مَقْبَرَةُ صَلاحِ الدِّين
يَنْبِشُهَا ذِئْبٌ أَجْرَب

(71)-مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ط دار الدعوة بالإسكندرية، ص 107.

(72)-ذهب الكيلاني إلى فلسطين أول مرة سنة 1954، مع فريق الجوالة بكلية الطب في رحلة إلى عدد من الدول العربية هي لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، وكانت المرة الثانية عام 1965، حين قام الأستاذ يوسف السباعي بتنظيم رحلة للأدباء والفنانين إلى مدينة غزة بهدف الاطلاع على أوضاع اللاجئين الفلسطينيين ثم الكتابة عنهم، والتعبير الفني عن مأساتهم، انظر: مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني ص، 334.

(73)-مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، ص 335.

وَشَوَاهِدُ أَيَّامِ الْحُرِّيَّه

دَاسَتْهَا قَدَمٌ غَجَرِيَّه

وَالصَّخْرَةُ فِي قَلْبِ الْمَسْجِد

يَتَسَلَّقُهَا بَغَايَا[74]

ويصور شاعرنا ما تقوم به الإسرائيليات من تبذل وعهر داخل الأراضي الفلسطينية، بل في مساجدها دونما رعاية لحرمتها أو خوف من نخوة أهلها:

بِنْتُ صِهْيُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تَلْهُو قَدْ تَعَرَّتْ أَفْخَاذُهَا وَالنُّهُودُ

عَانَقَتْ حُلْمَهَا وَصَارَتْ تُغَنِّي قَدْ حَلا اللَّحْنُ وَالْهَوَى وَالنَّشِيدُ

بِنْتُ صِهْيُونَ فِي الْمَدَائِنِ تَجْرِي وَ"يَهُوذَا" عَلَى الْقِبَابِ يَشِيدُ

وَعَلَى الْقُدْسِ مِسْحَةٌ مِنْ ضَيَاعٍ وَبَكَى يَوْمَهَا التُّرَابُ الشَّهِيدُ[75]

ولا يتلبث شاعرنا كثيرًا في التهدي إلى أسباب هذا الواقع المخزي الذي آلت إليه فلسطين، فاليهود لم ينتصروا، لكنهم واجهوا أمة ضعف إيمانها، وأخلدت إلى شهواتها، ومردت على الذل واستنامت إليه، فلم يعد في مكنتها أن تذود أعداءها عن أرضها:

مَاتَتْ أَصْدَاءُ الإِيمَان

فِي حَلْقِ الْمِذْيَاع

وَعَلَى وَجْهِ التِّلْفَاز

وَعَلَى صُوَرِ الصُّحُفِ الْعِرْبِيدَه

فَلِمَاذَا لا تَسْقُطُ أَمْجَادُ الْحُرِّيَّه؟!

وَلِمَاذَا لا يَلْحَقُنَا الْعَار

وَلِمَاذَا لا تَسْقُطُ فِي أَيْدِي الْفُجَّار

([74])-ديوان "عصر الشهداء": 72.

([75])-السابق، ص98.

obeikandl.com

مَدِينَتُنَا الشَّمَّاء؟
وَلِمَاذَا لا يَطْرَبُ "ديَّان"
وَيَدُوسُ بِأَقْدَامٍ قَذِرَه
قُدْسَ الأَقْدَاس؟!
لَمْ يَنْتَصِرِ الزَّحْفُ الأَسْود
بَلْ هُزِمَتْ أَفْرَاحُ الْحَقّ
فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ الْمُسْلِم
وَانْدَثَرَتْ آمَالُ الأَحْرَار
خَلْفَ الأَسْوَار
تَحْتَ سِيَاطٍ لا تَرْحَم[76]

ولا ريب أن يرى "الكيلاني" أمته – وهي بهذا السوء وتلك المهانة – أقمن من فلسطين بالتباكي والأسى، وأولى بالحض على التخلص من هذا الواقع الآسن المتعفن:

أَنَا لا أَبْكِيكِ يَا "قُدْسُ" وَعَهْدِي لَنْ أَخُونَهْ
أَنَا أَبْكِي أُمَّةَ الإِسْلامِ إِذْ تحْيَا مَهِينَهْ
لِمَ لا تَزْحَفُ كَالطُّوفَانِ يَجْتَاحُ الْعُفُونَهْ
لِمَ لا تَهْدِرُ كَالْبُرْكَانِ أَوْ تُزْكِي أَتُونَهْ
لِمَ لا تَنْقَضُّ نَسْرًا، لاهِبَ الْوَثْبِ مَتِينَهْ ؟[77]

بيد أن شاعرنا لا يكتفي بالنوح والبكاء، أو وصف المآسي والجراح، فنراه يقدم بين يدي أمته المخرج أو الحل لهذه القضية، قضية "فلسطين" التي اختلفت الآراء وتنوعت حول كيفية حلها، لكنها في النهاية ترتد إلى ثلاثة آراء أو حلول:

([76])–ديوان "عصر الشهداء"، ص 79، 80.

([77])–السابق: 95.

obeikandl.com

أولها: الحل الفلسطيني، ويرى أصحابه أن قضية فلسطين شأن داخلي، وعلى أهل فلسطين وحدهم أن يحلوا قضيتهم.

ثانيها: الحل القومي، وقد تبناه دعاة "القومية" ورأوا أن حل هذه القضية مسئولية كل العرب باعتبار فلسطين جزءًا من الوطن العربي.

ثالثها: الحل الإسلامي، ويرى أصحابه أن حل قضية فلسطين واجب الأمة الإسلامية جميعها، خاصة أن الشعر القومي – باستثناء القليل منه – "لم يستطع أن يؤدي رسالته كاملة نحو المجتمع العربي لأنه كان شعرًا منفعلًا، قبل أن يكون فاعلًا، يستوحي ولا يوحي ... وقد جرفت السياسة في تيارها رهطًا من الشعراء، انجرفوا عن وجدان أمتهم"[78]، والحل الإسلامي هو الحل الذي تبناه "الكيلاني" في شعره، فاسترجاع فلسطين لا يتم – من وجهة نظره – إلا باتحاد الأمة الإسلامية، وجهادها حكامًا وشعوبًا تحت راية الإسلام لاسترداد أرضها وكرامتها:

اللهُ أَكْبَرُ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى ... إِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الآفَاقِ مِنْ قِدَمِ

شُدُّوا الرِّحَالَ وَهَيَّا لِلْقِتَالِ إِذًا ... إِنَّ الْقِتَالَ مُبِينُ الْحَقِّ إِنْ يُضَمِ

يَا سَاسَةَ الْعُرْبِ هُبُّوا للنِّضَالِ مَعًا ... ثُمَّ اتْرُكُوا بَالِيَ الأَحقَادِ وَالتُّهَمِ

يَكُنْ لَكُم خَالِقِ الأَكْوَانِ مُعْتَصَمًا ... حِمَى الرَّحِيمِ لَدَيْنَا خَيْرُ مُعْتَصَمِ

رُدُّوا إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى كَرَامَتَهُ ... وَافْدُوا بُنُوَّتَهُ بِالْمَالِ أَوْ بِدَمِ

وَجَنِّدُوا الْجُنْدَ إِنَّا فَوْقَ جَارِيَةٍ ... إِمَّا إِلَى الْفَوْزِ أَوْ إِمَّا إِلَى الْعَدَمِ[79]

([78])–د. عمر الدقاق: الاتجاه القومي في الشعر الحديث، مكتبة الشرق بحلب، ط2، ص 277، وانظر: د. محمد عبد العزيز الموافي: الجواهري آخر الفحول، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع–القاهرة 2007، ط1، ص 213ـ223.

([79])–ديوان "نحو العلا": 55،56.

ولا يغيبنَّ عن البال أن هذه الدعوة الحارة إلى الجهاد لاسترداد المسجد الأقصى إنما هي أثر من آثار دعوة "الإخوان المسلمين" على شاعرنا، ومن ثم فإنه لا يني يلح عليها كثيرًا في شعره، فيقول على لسان فلسطيني عازم على الثأر، في لغة تفيض حماسة ومضاءً، وتتفجر ثقةً وأملًا:

أَنَـا فِي غَـدِي كَالشُّـعْلَةِ الْحَمْـرَاءِ تَجْتَـاحُ الْهَشِـيمْ
كَـالنُّورِ يَكْتَسِـحُ الظَّـلامَ، وَيَفْضَـحُ اللَّيْـلَ البَهِـيمْ
سَـأَثُورُ فَـوْقَ بِطَـاحِ "يـافَا" لا ... أَرِيـمْ[80]
أَبْنِي الَّـذِي هَدَمَتْـهُ عَادِيَـةُ الْخُطُـوبِ عَـلَى التُّخُـومْ
وَ"بِخَانِ يُونُسَ" أَرْقَأُ الدَّمْعَ الَّـذِي خَضَـبَ الأَدِيـمْ
وَالْقُـدْسُ أُرْجِعُهَـا إِلَـى الأَحْـرَارِ وَالشَّـعْبِ الْمَجِيـدْ
وَأُعِيدُهَـا قُدْسِـيَّةَ الأَعْطَـافِ كَالْمَـاضِي السَّعِيـدْ
وَعَـلَى الْمَـآذِنِ يَهْـدِرُ التَّكْبِـيرُ فِـي الْفَجْـرِ الْوَلِيـدْ
وَسَتَعْلَمُ الأَحْـدَاثُ كَيْـفَ نُقَـارِعُ الْخَطْـبَ الشَّدِيـدْ
يَحْمِي الإِلَـهُ حُشُودَنَـا، وَبِقَلْبِنَا الْعَزْمُ الْحَـدِيـدْ[81]

كما يعلن الكيلاني شوقه إلى لقاء الطغاة، ليطهر "أرض الأنبياء" منهم، ويستنهض همم المسلمين لحربهم مذكرًا إياهم بتضحيات أسلافهم، وناعيًا عليهم رضاهم بحياة الذل والاستعباد:

شَـوْقِي إِلَى لُقْيَـا الطُّغَـاةِ مُجَـوِّبٌ بَـيْنَ الضُّـلوعِ ..مُزَمْجِـرٌ..وَمُدَمْـدِمُ
فَـالْعَيْشُ فِـي ظِـلِّ الْمَذَلَّـةِ يَـا لَـهُ مَوْتًـا وَإِنْ كُنَّـا نَعِـيشُ وَنَسْـلَمُ
أَرْضُ النُّبُـوَّةِ وَالْبُطُولَـةِ والْفِـدَا كَـمْ سَالَ فِـي أَمْوَاهِهَـا مِنَّـا الـدَّمُ
وَعَـلَى شَـوَاطِئِهَا ثَـوَى أَجْـدَادُنَا مِنْ بَعْدِ أَنْ بَذَلُوا النُّفُوسَ وَقَـدَّمُوا
يَـا فِتْيَـةَ الـدِّينِ الْحَنِيـفِ تَحَفَّـزُوا وَثِبُـوا عَـلَى الْبَـاغِينَ لا تَسْتَسْـلِمُوا

(80)-البيت هكذا في الديوان، ولكنه مكسور.

(81)-ديوان "أغاني الغرباء": 46.

هُبُّوا كَآسَادِ الشَّرَى فِي ثَوْرَةٍ تَبْنِي الْخُلُودَ وَلِلْمَذَلَّةِ تَهْدِمُ
شَرُّ الْحَيَاةِ حَيَاةُ غِرٍّ نَائِمٍ لا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ أَوْ يَحْكُمُ
مَنْ كَانَ يَنْشُدُ فِي السَّمَاءِ مَطَامِعًا فَجَنَاحُهُ عَزْمٌ يَثُورُ وَيُقْدِمُ
وَإِذَا أَرَادَ النَّجْمَ فِي عَلْيَائِهِ هَيْهَاتَ أَنْ يَلْقَاهُ وَهْوَ مُحَطَّمُ[82]

* * *

يلي قضيةَ فلسطين في حظها من اهتمام الشاعر، قضيةُ العدوان على بلده الحبيب مصر؛ فقد قامت إسرائيل تعاونها إنجلترا وفرنسا بعدوان غادر على مصر- سنة 1956، واحتلت سيناء، وتوقفت قناة السويس وسقط فيها عدد كبير من المصريين قتلى وجرحى، ودمرت أحياء واسعة بمدن القناة[83]، وفي تلك الأثناء كان شاعرنا يقبع خلف الأسوار، يقاسي ليالي العذاب الطويلة، فزاده نبأ العدوان غمًا على غم فلم يجد ملجأ إلا الله يرجوه أن يرفع هذا البلاء:

أَيْقَظَ الْوَجْدُ حَنِينِي حِينَمَا جَوَّبَ البَاغِي عَلَى أَشْلائِنَا
مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ جَاءُوا عُصْبَةً لِيُثِيرُوا الرَّوْعَ فِي أَوْطَانِنَا
كَمْ لَهُمْ فِي أَرْضِنَا مِنْ غَدْرَةٍ لَمْ تَزَلْ آثَارُهَا تَدْمَى بِنَا
وَلَكَمْ ثُرْنَا عَلَى إِرْهَابِهِمْ غَيْرَ أَنَّ الْقَيْدَ عَاقَتْ خَطْوَنَا
يَا إِلَهِي إِنَّ فِي أَحْشَائِنَا مِرْجَلا يَغْلِي وَفِي أَرْوَاحِنَا
أَلْقِ بِالنُّورِ عَلَى ظُلْمَتِنَا وَامْحُ بِالْعَفْوِ خَطَايَا دَهْرِنَا
إِنْ تَكُنْ تُعْرِضُ عَنْ آمَالِنَا مَنْ لَنَا يَحْنُو عَلَيْنَا؟ مَنْ لَنَا؟[84]

([82])-ديوان "كيف ألقاك": 58، 59.

([83])-انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية 1980م: 9/ 480.

([84])-ديوان "أغاني الغرباء": 45.

وفي قصيدة أخرى يُجري الكيلاني حوارًا بين شخصين أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي، يتخذهما قناعًا يبرز من خلاله أطماع قادةٍ ساقوا جنودهم إلى حرب ظلوم تحقيقًا لمآرب دنيوية وأطماع شخصية:

الإنجليزي: أَخِي قَدْ عَادَتِ الأَيَّامُ بِالآلامِ وَالثَّوْرَهْ
وَأَصْدَرَ "إِيدنُ" الْمَأْفُونُ فِي آجَالِنَا أَمْرَهْ
فَهَلْ حَقًّا "بَنُو التَّايمز" أُمَّتُهُمْ هِي الْحُرَّهْ؟
لَقَدْ كَذَبُوا .. فَهُمْ شَرِبُوا كُؤُوسًا كَدْرَةً مُرَّهْ
وَبَاعُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَبَاعُوا الْحُبَّ وَالأُسْرَهْ
وَآبُوا يَلْعَقُونَ الدَّمْعَ وَالأَشْجَانَ وَالْحَسْرَهْ
وَ"إِيدنُ" وَحْدَهُ حُرٌّ يُؤَجِّجُ شُعْلَةَ الْحَرْبِ

الفرنسي: أَجَلْ فَالْحَرْبُ غَانِيَةٌ لَهَا تِيهٌ وَبَسْمَاتُ
وَإِنَّ الْغِيدَ – لَوْ تَدرِي – حَقِيقَتُهُنَّ حَيَّاتُ
فَمِنْ حَرْبٍ إِلَى حَرْبٍ وَبِالأَحْزَانِ نَقْتَاتُ
وَصُحْبَتُنَا وَسَامِرُنَا أَبَادِيدٌ وَأَشْتَاتُ
وَ "جِي مُولْييه" قَدْ تَسْبِيهِ تِيجَانٌ وَدَوْلاتُ
شُعُوبٌ نَحْنُ ضَائِعَةٌ لِنَارِ الْحَرْبِ أَقْوَاتُ
وَهَا نَحْنُ إِلَى مِصْر – لِنُطْلِقَ صَيْحَةَ الْحَرْبِ[85]

وفي الخامس من يونيو 1967 قامت إسرائيل في الصباح الباكر بهجوم سريع بالطائرات، واتخذت المطارات المصرية هدفًا لها، وتعطل سلاح الطيران المصري، فاجتاحت سيناء، وصدر الأمر للجيوش بالانسحاب فكان ذلك فرصة انتهزها العدو، فراح يضرب المنسحبين دون رحمة، وانهارت الجبهة المصرية في سرعة عجيبة، وإذا كان عبد الناصر يسمي ما حدث في يونيو "نكسة"

(85)-ديوان "أغاني الغرباء": 27، 28.

فإنها كانت – كما يقول الدكتور أحمد شلبي – كارثة وفجيعة ومأساة لم تعرف لها في تاريخ الحروب مثيلًا[86].

وقد وجد الكيلاني في هزيمة 67 متنفسًا عن مكبوت صدره، فاتخذها تكأة لبيان المفاسد التي كانت وراء تلك الهزيمة، فغرور الحاكم واستبداده بشعبه قد جعل منه شعبًا جبانًا لا يردع ظالمًا ولا يرد معتديًا، يخشى الوغى ويضن بحياته أن تبذل في سبيل كرامته:

فِي "حُزَيرَانَ" آذَنَتْنَا خُطُوبُ ... كَاسِحَاتٌ وَضِيعَةٌ وَرُعُودُ

أَغْرَقَتْنَا هَوَاجِسٌ وَخَطَايَا ... وَغُرُورٌ مُسْتَحْكِمٌ وَشُرُودُ

فَإِذَا الأُفْقُ جَمْرَةٌ تَتَلَظَّى ... وَإِذَا الأَرْضُ بِالشَّقَاءِ تَمِيدُ

مَشْهَدٌ صَاخِبٌ وَدُنْيَا هَوَانٍ ... وَانْحِسَارٌ عَلَى الْمَدَى مَشْهُودُ

مَلَكَ الْخَوْفُ فِكْرَنَا وَاسْتَبَاهُ ... وَاسْتَبَدَّ الْخَنَا بِنَا وَالْجُحُودُ

كَيْفَ تَغْشَى الْوَغَي نُفُوسُ عَبِيدٍ ... أَثْقَلَتْهَا مَظَالِمٌ وَقُيُودُ ؟![87]

وفي قصيدة "حيثيات في فقه النكسة" يلح الكيلاني على الأسباب نفسها، فالقهر وارتكاس الفن والفكر، والبعد عن منهج الله والفرقة والخنوع كلها أسباب تقف وراء نكستنا:

وَلأَنَّ الشَّعْبَ قَدْ دِيسَ إِبَاؤُهْ

لَمْ يَعُدْ يُسْمَعُ فِي الأُفْقِ نِدَاؤُهْ

لَمْ يَعُدْ يَخْفِقُ فِي السَّاحِ لِوَاؤُهْ

غَابَ عَنْ دُنْيَاهُ وَانْهَارَ بِنَاؤُهْ

وَلأَنَّ الْفَنَّ أَمْسَى كَالدِّعَارَةْ

---

(86)–انظر في تفاصيل هذه الهزيمة النكراء: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: 9/ 722.

(87)–ديوان "عصر الشهداء": 97، 98.

وَغَـدَا يَقْتَـاتُ مِـنْ لَحْـمِ الإِثَـارَةْ

وَلأَنَّ الْفِكْـرَ قَـدْ خَـلَّى وَقَـارَهْ

لَمْ يَعُـدْ لِلْعِلْـمِ فَضْـلٌ أَوْ حَضَـارَةْ

وَلأَنَّـا قَـدْ تَجَاهَلْنَـا الْكِتَـابْ

وَهْـوَ نُـورٌ وَانْتِصَـارٌ وَمَتَـابْ

أَفْسَحَ الأُفْـقُ طَرِيقًـا لِلضَّـبَابْ

كَيْ يَعِيثَ الْقَهْرُ فِينَـا وَالْعَـذَابْ

وَلأَنَّـا قَـدْ تَمَزَّقْنَـا وَحِرْنَـا

وَحَمَلْنَـا الْقَهْـرَ أَلْوَانًـا وَسِرْنَـا

وَتَحَمَّلْنَـا الْبَلايَـا وَاسْتَكَنَّـا

ضَاعَتِ الآمَالُ مِـنْ بَـيْنِ يَـدَيْنَا[88]

غير أن شاعرنا لا ينقطع أمله في البرء من هذه العلل، ولا ييأس من شروق فجر جديد يبدد ظلماء تلك المحنة:

رُبَّـمَا يُـومِضُ فَجْـرٌ فِي دُجَانَـا

وَيُـرَوِّي الْحُـبُّ صَـحْرَاءَ أَسَـانَا

حَيْـثُ نَخْتَـالُ إِبَـاءً وَأَمَـانَـا

فَرْحَـةٌ كُـبْرَى عَـلَى قُـدْسِ رُبَانَـا[89]

(88)-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 20.

(89)-السابق: 21.

* * *

وتأتي حرب الروس والأفغان في المرتبة الثالثة من اهتمام الشاعر، وله في ذلك قصيدتان: في القصيدة الأولى "الروس قادمون" يصف الكيلاني الزحف الروسي الغاشم الذي أتى على الأخضر واليابس، ويصور وحشيتهم في حصد الرقاب ونشر الخراب:

الرُّوسُ قَادِمُونَ يَا ابْنَتِي
جَحَافِلٌ كَلَيْلِنَا الْمُدَنَّس
.....
عُيُونُهُمْ خَنَاجِرٌ مُصَوَّبَهْ
سِجِلُّهُمْ مَظَالِمٌ مُبَوَّبَهْ
لا تَسْأَلِي عَنِ الإِخَاءِ وَالسَّلام
وَغُصْنِ زَيْتُونٍ تَدَلَّى أَوْ حِمَام
"فَالْمِنْجَلُ الْمَحْمُومُ" يَحْصُدُ الرِّقَاب
وَيَذْبَحُ الْمَحَبَّة
وَيَنْشُرُ الْخَرَاب
إِنْ تُبْصِرِي الْمَطَارِق
فَلْتَذْكُرِي الْبِنَادِق
وَسَاحَةَ الْمَشَانِق(٩٥)

ويذكر شاعرنا الشعب الأفغاني-متوسلا بالإشارة التراثية-بجهاد سلفه القائد الشجاع "محمود الغزنوي"، ويدعوه إلى تطهير أرضه من الغزاة المعتدين في غير ما لين أو هوادة، فمن لم يتذأب تأكله الذئاب:

إِنْ لَمْ تَكُنْ يَا وَطَنَ الأُبَاةِ ذِئْبًا وَاثِبًا

(٩٥)-ديوان "كيف ألقاك": 27.

obeikandl.com

تَأْكُلْكَ فِي سُعَارِهَا الذِّئَاب
يَا أُمَّةَ الأَفْغَانِ لَمْ يَزَلْ
"الْغَزْنَوِيُّ" مِنَ الْعَرِينْ
مُؤَذِّنًا بِصَيْحةِ الأَمَل
يَنْدَاحُ مِنْ جِبَالِنَا الرَّنِين
الْمَوْجُ يَسْحَقُ الصُّخُور
يَكْتَسِحُ الْوَبَاءَ وَالرِّمَم
يُطَهِّرُ الدِّيَار
وَيَزْرَعُ الْهِمَم
آمَالُ أُمَّتِي بِلا نِهَايَة
وَنَحْنُ رَغْمَ كُلِّ كَبْوَة
نَعْرِفُ نُقْطَةَ الْبِدَايَة
قُرْآنُنَا دَلِيل
مَنْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ لا يَضِلْ[91]

وفي القصيدة الثانية "الفارس" – والفارس هنا رمز للشعب الأفغاني الباسل – يبارك الكيلاني جهاد الشعب الأفغاني المسلم وصموده أمام الشيوعية الحاقدة، رافعًا راية التوحيد في وجه الإلحاد الأحمر:

أَلا يَا فَارِسِي قُلْ لِي، لِمَنْ فِي الأَرْضِ تَنْتَسِبُ
أَرَى فِي زَحْفِكَ الْمَيْمُونِ رُوحَ الْحَقِّ تَلْتَهِبُ
وَفِي عَيْنَيْكَ قُرْآنٌ، وَسَيْفُ الْمَجْدِ يَنْتَصِبُ
تُعِيدُ حِكَايَةَ الإِيمَانِ وَالأَمْجَادِ إِذْ تَثِبُ

(91)–السابق: 30.

obeikandi.com

فَـأَنْتَ الْقُـدْوَةُ الْمُثلَـى بِعَصْرٍ ـ كُلُّـهُ كَـذِبُ
وَأَنْـتَ حَقِيقَـةٌ كُـبْرَى تُضِيءُ وُجُودَنَـا الْعَـانِي
وَأَنْـتَ الْقِمَّـةُ الشَّـمَّاءُ لا تَعْنُـو لِطُغْيَـانِ
تُجَابِـهُ كُفْـرَ عَالَمِنَـا بِـإِصْرَارٍ وَإِيمَـانِ
وَأَنْـتَ خَلِيفَـةُ الْمَـوْلَى، جِهَـادُكَ خَـيْرُ بُرْهَـانِ
وَإِنَّـكَ أَنْـتَ أَفْغَـانِي
وَإِنَّـكَ أَنْـتَ أَفْغَـانِي[92]

وللكيلاني قصيدتان كذلك في تصوير العدوان العراقي على الكويت، يظهر من عنوانهما (الغادرون – عاصفة التتار) مدى الجرم الذي اقترفته العراق بحق أختها الكويت، يصف الكيلاني في القصيدة الأولى "الغادرون" الخراب الذي حل بالكويت جراء الغزو العراقي، وفي الثانية (عاصفة التتار) يفضح تمسح النظام العراقي بالدين واتخاذه ستارًا يسوغ به عدوانه وظلمه، يقول في الأولى:

مَزَجُوا مِيَاهَ الْبَحْرِ – وَهْيَ حَيَاتُنَا – بِالسُّمِّ وَاغْتَالُوا نَقَاءَ الْمَاءِ
قَتَلُوا بِهَا الأَسْمَاكَ وَهْيَ بَرِيئَةٌ نَقَمُوا عَلَى الْمَرْجَانَ وَالأَحْيَاءِ
بَعَثُوا الْمَنَايَا السُّودَ فِي قَلْبِ السَّمَا خَفَرُوا صَفَاءَ السُّحْبِ فِي الأَجْوَاءِ
كَمْ قَرْيَةٍ جَارَتْ وَبَادَتْ فِي الأُلَى وَمَضَى أَكَابِرُهَا إِلَى الإِفْنَاءِ[93]

ويقول في الثانية:

يَا أَحْمَدُ الْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَازِلَةٍ الأَدْعِيَاءُ بِمَا أُرْسِلْتَ قَدْ جَهِلُوا
تَمَسَّحُوا بِرِدَاءِ الدِّينِ وَاأَسَفَا وَهُمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ بِالأَمْسِ قَدْ جُبِلُوا[94]

([92])–ديوان "مهاجر": 24.

([93])–ديوان لؤلؤة الخليج: 20.

([94])–السابق: 16.

obeikandl.com

وعلى الرغم من أن انفعال الكيلاني بالعدوان العراقي على الكويت لم يصل إلى درجة انفعاله بالعدوان على الأوطان السابقة، وهو ما انعكس بالسلب على قصيدتيه السالفتين، فبدت عليهما مظاهر ضعف لعل أقله الكسر العروضي الواضح في البيت الأخير، ناهيك عن استرفاد تراثي نُوَاسِيٍّ[95] يخالف إسلاميته، إلا أن هذا الانفعال – على ضعفه – لا يخلو من دلالة على معايشة شاعرنا لقضايا أمته واعتصاره لهمومها.

2 – قضية الحرية والاستبداد:

تأتى قضية الحرية في مقدمة القضايا التي اهتم بها شاعرنا، ونذر لها أدبه شعرًا، ونثرًا، لا سيما بعد أن حُرم منها فترة من حياته ذاق خلالها مرارة السجن والتعذيب والتنكيل، يقول الكيلانى: "دائمًا كانت تشغلني قضية الحرية؛ ذلك لأننا شعب ابتلى من قديم السنين بملوك وولاة وحكام قلما يرعون حق الله وحق العباد، ولقد كانت للتجربة المريرة التي خضتها أكبر الأثر في تعميق الإحساس بالحرية، وأهميتها للإنسان حتى يبدع ويجدد، وللوطن حتى ينمو ويتقدم ويزدهر، ولهذا فإن الكم الأكبر من قصصي ورواياتي، بل مؤلفاتي الأخرى تدور حول هذا المعنى النبيل، وذلك من خلال التصور الإسلامي الصحيح"[96].

وإذا كان جمال عبد الناصر قد نجح في تحقيق بعض الإنجازات المادية داخليًا وخارجيًا، فإنه أخفق في تحقيق الكرامة لمواطنيه، فقد استذل شعبه وكتم أنفاسه، وانتُهكت في عهده الحرمات، وهُتكت الأعراض وكثرت الاعتقالات، وعُذِّب فيها الرجال والسيدات والأطفال، وكثرت المحاكمات الظالمة للزعماء السياسيين، وللإخوان المسلمين، والأحكام الجائرة عليهم[97]، وشاعرنا واحد ممن اكتوى بنيران هذا الظلم، ومن هنا وجدنا في شعره ثورة عارمة على الظلم

([95])-عنيتُ قولَ أبي نُواس (الحسن بن هانئ):

يَا أَحْمَدُ المُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ

ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، تحقيق ايفالد فاغنر، الهيئة العامة لقصور الثقافة "الذخائر"، المجلد الثالث، ص 57.

([96])-مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني: 378.

([97])-انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: 9/ 790 – 795.

والظالمين، وتصويرًا لهذا الجو الخانق المكروب الذي لاذ فيه المفكـرون بالصـمت، حتـى لا يفسر- رأيهم بما يوردهم موارد التهلكة:

وَيَخْـلُـدُ الْمُفَكِّرُون

لِصَوْمَعَاتٍ مُظْلِمَة

يُغَمْغِمُون.. يَشْرُدُون

.....

لَكِنَّهُمْ لا يَكْتُبُون

الْحَرْفُ أَمْسَى مِشْنَقَة

والرَّأْيُ إِثْمٌ سَادِر

إِنْ تَبْتَسِمْ فَأَنْتَ سَاخِر

وَقَبْضَةُ الْجَلادِ قَادِرَه

إِنْ تَمْتَعِضْ فَذَاكَ جُرْمٌ بَالِغ

وَقَبْضَةُ الْجَلادِ قَادِرَه

وَإِنْ تَبَلَّلَتْ أَهْدَابُكَ السَّوْدَاء

فَأَنْتَ حَاقِدٌ عَلَى الأَوْضَاع

حَرْبٌ عَلَى الْجِيَاع

وَمُنْجَزَاتِ الثَّائِرِين

وَأُمْنِيَاتِ الْمُتْعَبِين[98]

ويبدو أن حالة القهر والكبت التي تمارسها السلطة على المفكرين والمبدعين كانت تؤرق شاعرنا كفنان، والفنان بطبعه أكثر إحساسًا بقيمة الحرية من غيره؛ لهذا نراه يلح على هذه الصـورة القاتمـة من تبدل القيم، والمصادرة على الآراء والأفكار، وتكميم الأفواه:

وَالْكَلِمَةُ فِي قَيْدٍ قَاهِر

لا تَعْرِفُ طَعْمَ الْحُرِّيَّه

([98])-ديوان "عصر الشهداء": 37 – 38.

obeikandl.com

مُنْذُ سِنِينَ طَوِيلَه
وَالْفَنُّ اسْتُشْهِد
أَمْسَى دَمْعَةَ خَائِف
نَبْرَةَ ضَارِع
خَفْقَ سَجِينٍ صَامِت
الشَّكْوَى غَيْرُ مُبَاحَه
وَالنَّقْدُ جَرِيمَة
وَصَلاةُ الْمُؤْمِنِ رَجْعِيَّه
وَلِحَى العُبَّادِ حَمَاقَه
وَالدِّينُ خُرَافَه[99]

ولم يسلم الحكام المستبدون من لسان شاعرنا، فنراه يرسم لهم صورة تدعو إلى احتقارهم، لأنهم أصحاب نفوس مريضة، يطبيها مشهد شعوبهم تتلوى تحت سياط جلاديهم، فكانوا – في نظره – كَنِيرُونَ الذي قهر الرومان وأذلهم، بل لم تسلم أمه–وقد حملته في بطنها–من بطشه، فقتلها ومثل بها:

مِنْ أَسَانَا صَاغَنَا الْقَهْرُ دُمًى يَتَلَهَّى بِرُؤَاهَا الْحَاكِمُونْ
حَطَّمُوا الْكَأْسَ عَلَى أَفْوَاهِنَا وَبِآلامِ الضَّحَايَا يَهْزَءُونْ
كُلُّ "نِيرُونٍ" يُغَنِّي طَرَبًا وَيَكِيلُ الْعَسْفَ لِلْمُسْتَضْعَفِينْ
رَاقِصًا وَسْطَ جَحِيمٍ مُشْعَلٍ مُمْعِنًا فِي الإِثْمِ يَشْدُو بِاللُّحُونْ[100]

ويلجأ شاعرنا إلى أسلوب التهكم والسخرية، حين يدعو في صورة هزلية إلى الرضوخ التام لأوامر الدكتاتور، والتصفيق له أصاب أو أخطأ، لكنه يعبر عن صنف من الأناسي موجود فعلاً يجيد نفاق الحاكم، ويعرف من أين تؤكل الأكتاف:

([99])–السابق: 78.

([100])–السابق: 29.

لا تَشْـكُ يَـا مَقْهُـورُ أَوْ تَتَمَـرَّدِ وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِلـزَّعِيمِ الأَوْحَـدِ
وَاحْفَظْ شِـعَارَاتِ الْـوَلاءِ جَمِيعَهَـا وَاهْتِفْ لَهُ مِـنْ كُـلِّ قَلْبِـكَ وَاسْـجُدِ
شَرُّ الْخِيَانَـةِ أَنْ تُعَـارِضَ فِكْـرَهُ وَكَـذَا تُصَـنَّفُ فِي الْفَرِيـقِ الْمُعْتَـدِي
صَـفِّقْ لَـهُ إِنْ لاحَ فِي عَلْيَائِـهِ وَارْفَـعْ يَـدَيْكَ إِلَى السَّـمَاءِ وَمَجِّـدِ
وَاذْرِفْ دُمُوعَ الشَّـوْقِ عِنْـدَ لِقَائِـهِ كُـنْ مُخْلِصًـا حَقًّـا وَلا تَتَبَلَّـدِ
إِنْ قِيلَ قَـدْ بَـاعَ الْحِمَـى وَأَضَـاعَهُ فَاكْتُـبْ قَصَـائِدَكَ الْعِظَـامَ وَأَنْشِـدِ
وَاعْكِسْ حَقِيقَةَ مَـا يُقَـالُ تَنَـلْ بِـهِ خَـيْرَ الْجَـوَائِزِ وَالرِّضَـا الْمُتَجَـدِّدِ
وَإِذَا أُشِـيعَ بِـأَنَّهُ مُتَجَـبِّرٌ قُـلْ إِنَّـهُ الْهَـادِي الأَمِـينُ الْمُهْتَـدِي
وَإِذَا أُشِـيرَ الْقَـوْلُ عَـنْ أَنْسَـابِهِ فَهُوَالأَصِيلُ ابْنُ الأَصِـيلِ الْمُحْتِـدِ[101]

والعجيب أن الاستبداد ليس وقفًا على مصر وحدها، ولكنه آفة الأمة الإسلامية كلها، بيد أن هذه الأمة بجهلها، ونفاقها وجبنها هي التي خلقت هـذا الواقـع المنكـود، ومـن ثـم لا ينفـرد الحاكم وحده بالمسئولية عن هذا الاستبداد، بل تتحمل تلك الشعوب كفلا من المسئولية عن هـذا الواقع البئيس؛ لأنها شعوب مردت على نفاق حكامها، فتودع منها:

آفَـةُ الشَّرْـقِ حَـاكِـمٌ مَعْبُـودُ وَشُـعُوبٌ تَـرُوعُهُـنَّ قُيُـودُ
أُمَّـةٌ تَمْـلِكُ الْكَثِـيرَ وَلَكِـنْ هَدَّهَـا الْجَهْلُ وَالأَسَـى وَالْجُمُـودُ
وَتُطِيلُ السُّـجُودَ فِـي كُـلِّ حِـينٍ وَلِغَـيْرِ الإِلَـهِ ذَاكَ السُّـجُودُ
نَـالَ إِقْـدَامَهَا هَـوَانٌ وَذُلٌّ وَتَغَنَّـى بِـالْمُوبِقَاتِ الْقَصِـيدُ
كَيْفَ تُحْصَى- مَهَـازِلُ الْقَـوْمِ فِيهَـا وَهِـيَ تَرْبُـو عَـلَى الْمَـدَى وَتَزِيـدُ
مَلَـكَ الْخَـوْفُ فِكْرَنَـا وَاسْـتَبَاهُ وَاسْـتَبَدَّ الخَنَـا بِنَـا وَالْجُمُـودُ
كَيْفَ تَغْشَى الْوَغَى نُفُـوسُ عَبِيـدٍ أَثْقَلَتْهَـا مَظَـالِمٌ وَقُيُـودُ[102]

(101)-ديوان "مدينة الكبائر": 63، 64.

(102)-ديوان "عصر الشهداء": 96.

غير أن هذا الواقع الكئيب لم يكن ليوئس شاعرنا من شروق الفجر الوليد (فجر الحرية)، ولا يزايله الأمل في أفول ليل الظلم والظالمين، لذا نراه يبحث عن الفنان الفارس الذي يبشر بهذا الفجر الوليد، ويكون رسولًا لهذه الحرية:

أَبْحَثُ عَنْ فَنَّانٍ إِنْسَان

.....

يَهْدِمُ سُورَ السِّجْنِ الأَسْوَد

يَرْفَعُ أَحْزَانَ الأَغْلال

يَخْنُقُ أَجْرَاسَ الزَّيْف

يَسْحَقُ أَصْنَامَ الْخَوْف

لَمْ يَخْشَ سِوَى الْحَقِّ الأَعْلَى

يَبْصُقُ فَوْقَ طِلاءِ الأَصْنَام

وَيُوَشِّى لِلْحُبِّ رَبِيعًا

وَيُغَنِّي أَعْرَقَ أَلْحَانِه

لِلْحُرِّيَّه[103]

وهذا الفارس أو المخلص هو القائد الذي يقود الشعوب نحو حريتها، ويرمزله شاعرنا بـ" أيوب" الذي يقود الرعاع نحو التحرر متسلحًا بالعون الإلهي "نفحة من السماء" في معركة استعادة الكرامة وميلاد الفجر الوليد "الحرية":

أَيُّوبُ وَ"الرِّعَاع"

وَنَفْحَةٌ مِنَ السَّمَاء.

وَقَبْسَةٌ مِنَ الضِّيَاء

وَفَارِسٌ يُحَطِّمُ الأَسْوَار

وَيَخْنُقُ الظَّلامَ وَالأَسَى

.....

(103)-السابق: 53، 54.

obeikandl.com

يُعِيدُ لِلْحَيَاة

الْحُبَّ.. وَالإِرَادَة

يُحَرِّرُ الْعَبِيدَ وَالإِمَاء

يُحَدِّدُ الأَشْيَاء

وَيَمْحَقُ الضَّبَابَ وَالْعَنَاء

فَتُولَدُ الْحُرِّيَّه

وَيُولَدُ الإِبَاءُ وَالشَّرَف

وَتَضْحَكُ الزُّهُور

وَتَرْقُصُ الْغُصُون

وَتَنْشُدُ الْعَذَارَى

نَشِيدَهَا الْقُدْسِيّ

فِي مَحْفَلِ الْفَجْرِ الْوَلِيد[104]

ولا بد لهذا الفجر الوليد "الحرية" من ثمن، وشروقه رهن بإيجابية هذه الشعوب، ونضالها من أجل حريتها، ومن ثم يعلن الكيلانى ثورة عارمة على الحكام المستبدين، ويدعو العبيد الراضين بحياة الذل أن يثوروا ويحطموا قيودهم، وأن ينتزعوا حريتهم انتزاعًا، والله ناصرهم ما استعصموا بمنهاجه، فالإسلام لا يعرف ذلًا أو خضوعًا إلا لبارئ هذا الكون:

بَارِئَ الْكَوْنِ قَدْ خَفَضْتُ جَبِينِى ... خَاشِعًا سَاجِدًا عَلَى الْغَبْرَاءِ

إِنَّمَا الذُّلُّ لِلطُّغَاةِ حَرَامٌ ... وَمُرُوقٌ عَنْ مِلَّتِي السَّمْحَاءِ

إِنَّ حُرِّيَّتِي صَمِيمُ وُجُودِي ... كَيْفَ أَحْيَا هَيْكَلٍ مِنْ هَبَاءِ

حَطِّمُوا يَا عَبِيدُ أَيَّ قُيُودٍ ... غَيْرِ قَيْدِ الشَّرِيعَةِ السَّمْحَاءِ

إِنَّ لَيْلَ الْعَبِيدِ جِدُّ مَرِيرٍ ... فَجْرُهُ ذَابَ فِي أَسَى الظَّلْمَاءِ

سَيِّدًا أَنْتَ قَدْ خُلقْتَ فَحَاذِرْ ... مِنْ سُقُوطٍ فِي ذِلَّةٍ أَوْ رِيَاءِ

([104])-ديوان "عصر الشهداء": 41.

obeikandl.com

لَسْتَ أَدْنَى مِنَ الطُّيُورِ مَقَامًا أَتَرَاهَا تَشُقُّ قَلْبَ الْفَضَاءِ

مُؤْمِنٌ أَنْتَ وَالإِلَهُ نَصِيرٌ كَيْفَ تَخْشَى زَلازِلَ الْهَيْجَاءِ[105]

3 – واقع الأمة الإسلامية (الأزمة.. والحل):

حرص الكيلاني دائمًا على أن يتجاوز النطاق المحلى الضيق، ليحلق بأدبه في آفاق الإنسانية الرحيبة، ولقد كانت تضنيه آلام أمته، وتدمى قلبه وتفتت كبده، وهذا الموقف نابع من إيمانه بأن الشاعر " لا بد أن يتلاحم عضويًا ونفسيًا مع مجتمعه الذي يعيش فيه، ولا بد أن يكون وجدانه موصولًا بوجدان الجماعة الإنسانية التي ينتمي إليها يفرح لفرحها ويتألم لألمها وتهتز نفسه لكل ألوان الصراع التي تعانيها من أجل حريته وكرامة وجوده، والشاعر كما قال فيكتور هوجو: "هو لسان أمته، وهو ترجمان آلامها وآمالها، وهو صوت حاضرها وهاتف مستقبلها، فلا يمكن أن ينعزل بقريحته عن التأثير في أهل عصره وأبناء زمانه وألا يكون له دور في البناء الاجتماعي لأمته"[106].

وقارئ شعر الكيلاني يدرك لأول وهلة اتساع أفقه الوطني، ويقف منه على حديث مسهب عن علل الأمة الإسلامية وأمراضها، فحب النفوس، والانغماس في الشهوات والملذات، واللهو والمجون، والاستبداد والجهل، وغياب العدالة كلها سوس ينخر في جسم الأمة:

السَّيْلُ قَدْ بَلَغَ الزُّبَى وَتَحَطَّمَتْ سُفُنُ النَّجَاةِ وَهِمَّةُ الرُّبَّانِ

حُبُّ النُّفُوسِ أَمَاتَ كُلَّ فَضِيلَةٍ فِيمَا نُطَالِعُهُ وَحُبُّ الْفَانِي

الْمَالُ وَالذَّهَبُ النُّضَارُ وَقَيْنَةٌ أَوْ ضَيْعَةٌ سَكْرَانَةُ الرَّيْحَانِ

وَمَحَافِلٌ لِلَّهْوِ وَالْغَيِّ الَّذِي لا يَنْثَنِي وَمَجَانَةِ الْمُجَّانِ

وَالْحُكْمُ فَوْضَى وَالسِّيَاسَةُ لُعْبَةٌ تَهْتَزُّ بَيْنَ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ

([105])–ديوان "أغنيات الليل الطويل": 12.

([106])–د. عبد الحكيم بلبع: بين الأدب والنقد، جمع وتقديم الدكتور مهدي علام، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985م، ص 139.

وَالْحَـرْبُ أُغْنِيَـةٌ وَلَحْـنٌ فَاضِـحٌ بَـيْنَ الْجُمُـوعِ يَطِـنُّ فِي الآذَانِ
وَالْعِلْـمُ عِنْـدَ الْجَامِعَـاتِ شَـهَادَةٌ تُشْرَى وَأَلْقَـابٌ بِغَـيْرِ مَعَـانِ
وَالْجَيْشُ لا يَنْضُو السُّيُوفَ لِمُعْتَدٍ بَلْ يَقْمَعُ الشَّعْبَ الأَسِيرَ الْعَانِي
لَهْـوٌ بِمِيـزَانِ الْعَدَالَـةِ صَـارِخٌ فَـارْأَفْ بِنَـا يَـا وَاضِـعَ الْمِيـزَانِ
كُـلُّ الْمَقَـايِيسِ الشرِيفَةِ بُـدِّلَتْ وَتَسَرْبَلَتْ بِالزَّيْفِ وَالإِذْعَانِ[107]

غير أن عللا ثلاثًا استأثرت باهتمام شاعرنا، وفى مقدمتها بُعد الأمة عـن منهـاج ربهـا ونسـيانها قرآنها، وهذا أس ما حاق بالأمة من بلايا:

هَـــذِهِ أُمَّـــةُ الرَّسُـــولِ تَهَـــاوَتْ فِي فِجَـاجٍ مِـنَ الضَّـلالِ الْمُبِـينِ
هَجَرَتْ مُحْكَمَ الْكِتَـابِ وَشَـطَّتْ عَنْ طَرِيـقِ الْهُـدَى وَدَرْبِ الْيَقِـينِ
فَاسْـتَبَاهَا الْهَـوَانُ وَانْهَـارَ مَجْـدٌ كَـانَ بِـالأَمْسِ كَـالْعَرِينِ الْمَكِـينِ
دَهَمَتْهَـا جَحَافِـلُ الْكُفْـرِ غَـدْرًا وَغَزَاهَـا الأَشْرَارُ مِـنْ صُـهْيُونِ
فَرَّقَتْنَـا الأَهْـوَاءُ فِي كُـلِّ أَرْضٍ وَسَـجَدْنَا لِدُمْيَـةٍ مِـنْ طِـينِ
وَنَسِـينَا الْقُـرْآنَ جَهْـلا وَحُمْقًـا فَغَفَلْنَـا عَـنْ جَـوْهَرٍ مَكْنُـونِ[108]

والعلة الثانية هي تفرق الأمة وتشرذمها، بعد أن كانت صفًا واحدًا تحت راية الإسلام:

النَّـارُ فِي رُوحِـي وَفِي أَحْنَـائِى مَنْ يَسْتَجِيبُ لِحُرْقَتِي وَبَلائِـي
دَاءُ التَّنَـاحُرِ قَـدْ أَلَمَّ بِـأُمَّتِي أَضْحَى لَدَيْهَا أَلْـفُ أَلْـفِ لِـوَاءِ
فِي كُـلِّ نَـادٍ لِلسِّيَاسَـةِ مَـذْهَبٌ وَمَعَـارِكٌ تَهْتَـاجُ فِي الأَنْحَـاءِ
يَتَصَـارَعُونَ وَهُـمْ قَبِيـلٌ وَاحِـدٌ يَتَـدَابَرُونَ بِعَاصِـفِ الْهَيْجَـاءِ
قَدْ كَـانَ لِلإِسْـلامِ صَـفٌّ وَاحِـدٌ لَمْ تَخْتَرِقْـهُ جَحَافِـلُ الأَعْـدَاءِ[109]

([107])-ديوان "مدينة الكبائر": 20، 21.

([108])-ديوان "كيف ألقاك": 13.

([109])-ديوان "مدينة الكبائر": 79.

ولقد كانت مصائب الأمة كفيلة بتوحيدها، ولمّ شملها – على حد قول شوقي – "إن المصائب يجمعن المصابين"، إلا أن الخرق اتسع على الراتق:

مَا بَالُ قَوْمِيَ فِي النَّكْبَاءِ قَدْ غَفَلُوا ... وَاسْتَمْرَأُوا حُلُمًا مِنْ صُنْعِ وَسْنَانِ

تَفَرَّقُوا شِيَعًا وَانْحَلَّ عِقْدُهُمُ ... مَا شَاهَدَتْ مِثْلَنَا فِي الْخَلْفِ عَيْنَانِ

"اللهُ أَكْبَرُ" كَمْ بِالأَمْسِ قَدْ عَصَفَتْ ... بِكُلِّ عَادٍ عَلَى الإِسلامِ أَوْ جَانِ

لا تَحْسَبُوا أُمَمًا فِي الشَّرْقِ تَنْصُرُكُمْ ... أَوْ فِي دُنَا الْغَرْبِ إِذْ تُرْمَى بِعُدْوَانِ[110]

أما ثالثة الأثافي، فاستنامةُ هذه الأمة إلى الذل ورضاها بالاستعباد، واكتفاؤها بالحنين والتباكي على ماضٍ عبر ومجدٍ غبر:

أُمَّةٌ تَحْمِلُ الْقُيُودَ وَتَمْضِي ... لا تَمَلُّ الإِرْغَامَ وَالتَّنْكِيلا

كُلُّ مَا عِنْدَهَا رَصِينُ حَنِينٍ ... تَذْرِفُ الدَّمْعَ فِي الْخَفَاءِ طَوِيلا

أُمَّةٌ تَجْرَعُ الْمَهَانَةَ قَسْرًا ... لا تَمَلُّ التَّخْدِيرَ والتَّمْثِيلا

قَدْ طَوَاهَا تَخَاذُلٌ وَامْتِهَانٌ ... ثُمَّ هَبَّتْ تُقَدِّسُ التَّضْلِيلا

طَالَ عَهْدُ الضَّبَابِ فِي شَاطِئَيْهَا ... فَأَسَاءَتْ عُقُولُهَا التَّأْوِيلا[111]

ولا يكتفي نجيب الكيلاني – كعادته – بتشخيص الداء دون تقديم الدواء، والدواء الناجع لأدواء الأمة – في رأيه – هو العودة الصادقة إلى الإسلام والتمسك بالكتاب والسنة، وجهاد كل ظالم وباغ، وهي فكرة طالما ترددت في أدبيات الإخوان المسلمين، وتأثر بها الكيلاني، ورددها بدوره في كثير من شعره، ومن عادة شاعرنا أن يقرن بين سرده علل الأمة ودعوته إلى هذا الدواء الشافي:

آفَاتُنَا مَلَقٌ طَاغٍ.. وَمَظْلَمَةٌ ... وَضَيْعَةٌ لِضِيَاءٍ كَانَ يَهْدِينَا

تَقَاعُسٌ وَافْتِرَاءَاتٌ وَأَلْوِيَةٌ ... سَوْدَاءُ حَمْرَاءُ نَلْقَاهَا أَفَانِينَا

مَرَّتْ عَلَيْنَا أَعَاصِيرٌ مُرَوِّعَةٌ ... وَلَمْ نَزَلْ فِي ضَلالِ التِّيهِ مَاضِينَا

---

(110)–ديوان "مهاجر": 62.

(111)–ديوان "أغاني الغرباء": 55.

إِنَّـا سَـكَنَّا بِأَمْجَـادٍ لَنَـا ذَهَبَـتْ ... فِي مِصْرَ، فِي الْهِنْـدِ فِي أَرْجَـاءِ حِطِّينَـا

فِي عَيْنِ جَـالُوتَ إِذْ فَـرَّ الطَّغَـامُ بِهَـا ... فِي أَرْضِ أَنْـــدَلُسٍ وَاللهُ رَاعِينَـــا

كَـانَ الْيَقِـينُ وَكَـانَ اللهُ غَايَتَنَـا ... وَالْمَـوْتُ مِـنْ أَجْلِـهِ أَسْـمَى أَمَانِينَـا

لَمْ نَخْفِضِ الـرَّأْسَ إِلا فِي مَسَـاجِدِنَا ... وَمَـا رَكَعْنَـا رِضًى إِلا مُصَـلِّينَا

وَمَـا تَعَثَّـرَ رَكْـبٌ فِي مَعَارِكِنَـا ... وَلا تَمَكَّـنَ خَصْـمٌ مِـنْ نَوَاصِـينَا

فَـإِنْ نَعُـدْ لِكِتَـابِ اللهِ نَلْـقَ بِـهِ ... مِـنَ الْهُـدَى وَثِـمَارِ النَّصْرِ مَـا شِـينَا[112]

وهذا الحل يلح عليه شاعرنا كثيرًا في شعره:

شِـعْرُ التَّمَـرُّدِ لَـنْ يَحُـلَّ قَضِـيَّةً ... الْحَـلُّ بَـيْنَ تَوَثُّـبٍ وَطِعَـانِ

الشَّجْبُ وَاسْتِنْكَارُ مَا نُرْمَى بِـهِ ... ضَرْبٌ مِـنَ التَّجْـدِيفِ وَالْبُهْتَـانِ

قُولُـوا لِعُشَّـاقِ الْحَقِيقَـةِ: إِنَّـمَا ... الْحَـقُّ كُـلُّ الحَـقِّ فِي الْقُـرْآنِ

قُولُـوا لِطُـلابِ التَّحَـرُّرِ وَالْهُـدَى ... عُـودُوا إِلَى الإِسـلامِ وَالإِيـمَانِ

وَامْضُوا عَلَى نَهْجِ الأَمِينِ مُحَمَّـدٍ ... وَتَحَصَّنُـوا بِـالْعِلْمِ وَالْعِرْفَـانِ

وَاسْتَمْسِـكُوا بِشَرِيـعَةٍ قُدْسِـيَّةٍ ... سِـمْحَاءَ لَمْ تَخْلَـقْ عَـلَى الأَزْمَـانِ

خَضَعَ الأَكَـاسِرَةُ الْعُتَـاةُ لأَمْرِهَـا ... وَجَثَـا ذَلِيـلا قَيْصَرُ الرُّومَـانِ

كَـانَ الْجِهَـادُ فَرِيضَـةً مَعْصُـومَةً ... وَالنَّصْرُ يُكْتَبُ بِالْمِـدَادِ الْقَـانِي[113]

ويقول كذلك:

وَلَنْ تَعُودَ لَنَـا – كَـالأَمْسِ – عِزَّتُنَـا ... إِلا بِعَـودَةِ إِيـمَانٍ وَقُـرْآنِ[114]

([112])–ديوان "أغنيات الليل الطويل": 31.

([113])–ديوان "مدينة الكبائر": 21، 22.

([114])–السابق: 55.

المبحث الثاني: السجنيات الشعرية

ليس يخفى ما لهذا الموضوع من صلة بقضية الحرية التي تم تناولها آنفا، ولقد كان خليقا بأن يعالج في إطار تلك القضية "الحرية والاستبداد" لولا أن شاعرنا خص تجربة السجن بديوان كامل هو ديوانه الثاني "أغاني الغرباء"، جمع فيه قصائده التي نظمها بالسجن، بل إن تأثير تجربة السجن قد امتد فنيًا ليظهر في دواوينه التالية، وتكفى مراجعة عناوين بعض قصائد[115] تلك الدواوين لتتأكد هذه الحقيقة، كما ترددت في ثنايا تلك القصائد كثير من الألفاظ المرتبطة بالسجن، مثل: (القيد – الأغلال – السجن – السجان – السجين – الأسوار – القضبان – القهر – الذل)، وتدور كثير من تشبيهات شاعرنا في فلك السجن وحقله الدلالي، فلم يجد الكيلاني حين ضاق بالمشيب يزحف عليه ما يشبهه به سوى السجن:

الشَّيْبُ سِجْنٌ غُلِّقَتْ أَبْوَابُهُ وَالسِّجْنُ لَيْسَ لِبَابِهِ مِفْتَاحُ[116]

وتجاوز هذه الامتداد فن الكيلاني الشعري إلى فنه النثري، فقد عالج في كثير من قصصه ورواياته قضية السجن والاعتقال، ومنها – على سبيل التمثيل – قصة "القافلة"، و"البحث عن منى"، ورواية "رحلة إلى الله"، ورواية "ليل العبيد"، ولنجيب الكيلاني كذلك دراسة اجتماعية ميدانية حول مجتمع السجون بعنوان "المجتمع المريض".

ويقصد ***بالسجنيات*** – أو أدب السجون[117] –: "ذلك الإبداع الشعري والنثري الذي يصور فيه الأديب – بطريقة مباشرة صريحة أو طريقة رمزية غير مباشرة – المعاناة التي عاشها أو

([115])–منها – تمثيلًا لا حصرًا – قصيدة: "مدرسة الرعب" بديوان عصر الشهداء، و"ليل وقضبان"، و"خواطر سجين" بديوان كيف ألقاك، و"زائر الفجر"، و"السجن والحب والحرية" بديوان مهاجر، و"سعاد والسجين" بديوان مدينة الكبائر، و"أغنيات الليل الطويل"، و"الضحية" و"حبيبتي .. أنا اعترفت" بديوان أغنيات الليل الطويل.

([116])–ديوان "مدينة الكبائر": 28.

([117])–لأدب السجون جذور ممتدة في تراثنا العربي، ومن أقدم نصوصه الأبيات التي استعطف فيها "الحطيئة" أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي حبسه لهجائه الزبرقان بن بدر، يقول في مطلعها:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

يعيشها في السجن، وأبعاد العلائق بين المسجونين وحكام السجن والمهيمنين عليه، ويدخل في نطاق هذا الأدب كذلك تصوير الأديب السجين لبعض النماذج والأنماط البشرية التي يرصدها السجين، ويصورها بقلمه، وخصوصًا الشخصيات **السيكوباتية** الغريبة الأطوار، ويلجأ الأديب السجين كذلك إلى الربط بين حياة السجن وما في المجتمع من اختلالات سياسية واجتماعية، وهو في ذلك يلجأ إلى الرمز والإسقاط المتواري"[118].

وقد عالج الكيلاني في شعره كثيرًا من الموضوعات والمشاهد المتصلة بالسجن، بدأت بتصوير مشهد القبض عليه في وحشية تركت أطفاله مفزعين:

أَخِـي قَـدْ عَـادَ مُحْتَـدِمًا.. إِلَينَـا.. زَائِـرُ الْفَجْـرِ
يَـدُقُّ الْبَـابَ.. يَرْكَلُـهُ.. وَيَرْفَـعُ رَايَـةَ الْقَهْـرِ
أَرَى الأَطْفَالَ قَدْ فَزِعُوا وَصَاحُوا صَيْحَةَ الـذُّعْرِ
بِـأَيِّ جَرِيـرَةٍ أُخِـذُوا؟؟! أَنَـا وَاللهِ لا أَدْرِي[119]

كما يصور جو السجن الرهيب، الذي يحيا فيه الشرفاء، واللافت للنظر أنه يشبه السجن بالصومعة، والأصل فيها أنها بيت للعبادة وتربية الروح، لكن السجن عالم تضيع فيه معالم الأشياء:

وَيَخْلُدُ الْمُفَكِّرُونْ

ومنه كذلك "روميات" أبى فراس الحمداني، ومنه في العصر الحديث "سرنديبيات" البارودى، وديوان "وراء حسك الحديد" للشاعر العراقي محمد بهجة الأثري، وديوان "في غيابة الجب" للشاعر المصري على الفقي، وللشاعر السوري محمد الحسناوي ديوان يحمل الاسم نفسه.

كما ظهر هذا اللون في النثر كذلك، ومنه كتاب "عالم السدود والقيود" لعباس العقاد ، و"مذكرات واعظ أسير" لأحمد الشرباصي، وكتب مصطفى أمين "سنة (أولى – ثانية – ثالثة) سجن"، و"وراء البوابة السوداء" للكاتب العراقي محمود الدرة، و"في الزنزانة" للدكتور على جريشة. انظر: د. جابر قميحة: السجنيات في أدب الكيلاني، مجلة "المنتدى"، ع 156، ص 39.

([118])-المرجع السابق: 39.

([119])-ديوان "مهاجر": 48.

لِصَوْمَعَاتٍ مُظْلِمَه
الصَّمْتُ وَالْمُنُونْ
وَنَظْرَةُ الْجُنُونْ
وَالرُّعْبُ وَالسُّجُونْ
تَلُفُّ حُزْنَ الصَّوْمَعَه
مِنَ الْجِهَاتِ الأَرْبَعَه
وَسَقْفُهَا يَئِنُّ تَحْتَ خُطْوَةِ الْحُرَّاسْ
وَضَجَّةِ الْكِلابِ وَالأَجْرَاسْ
ثُمَّ اخْتِلاطِ الْمَوْتِ بِالأَعْرَاس
ضَاعَتْ مَعَالِمُ الأَشْيَاء
فِي عَالَمٍ مِنَ الرَّقِيقِ وَالإِمَاء[120]

ويمثل السجن عقبة كأداء تحول بينه وبين جهاد المستعمرين الغاشمين، الذين استحال الوطن على أيديهم خرابًا، ولا يجدون من يردعهم:

هَزَّنِي الشَّوْقُ لِلْجِهَادِ وَمَاجَتْ ... فِي حَنَايَايَ ثَائِرَاتُ الرَّغَائِبْ
غَيْرَ أَنَّ الأَغْلالَ تُرْهِقُ رُوحِي ... وَتَسُدُّ الطَّرِيقَ شَتَّى الْمَصَاعِبْ
يَا رِفَاقِي وَكَيْفَ يَنْقَضُّ لَيْثٌ ... وَهوَ فِي رِبْقَةِ السُّجُونِ يُعَاقَبْ
"إِنَّمَا الْحُرُّ مَنْ يُجِيدُ ضِرَابًا" ... مُرْتَقِي الْحُرِّ فَوْقَ مَتْنِ السَّحَائِبْ
يَمْسَخُ الذُّلُّ رُوحَ كُلِّ أَبِيٍّ ... وَيَهُدُّ الْحَمَاسَ فِي كُلِّ ضَارِبْ
قَدْ أَحَالَ الْبَغْيُ اللَّئِيمُ بِلادِي ... بَعْدَ إِذْلالِهَا بَقَايَا خَرَائِبْ
أَقْفَرَ السَّاحُ مِنْ هُتَافِ شُجَاع ... يُرْخِصُ الرُّوحَ لا يَهَابُ الْعَقَارِبْ[121]

([120])–ديوان "عصر الشهداء": 38، 39.

([121])–ديوان "كيف ألقاك": 10.

obeikandl.com

بل إن أثر السجن يمتد خارج أسواره، فما السجن إلا وسيلة من وسائل كل حاكم مستبد لإذلال شعبه وقهره، فيحيله شعبًا جبانًا يستمرئ الذل والضيم:

أَخِـي عَـادَتْ بِنَـا الأَيَّـامُ لِلأَحْـزَانِ وَالأَلَمِ
وَعَـادَتْ قِصَّـةٌ تُـرْوَى عَـنِ الـذُّؤْبَانِ وَالْغَـنَمِ
وَرَاعٍ زَائِـفِ الأَحْـلامِ فِي زَيْـفٍ مِـنَ الْقِـيَمِ
أَضَـاعَ قَطِيعَـهُ الْحَـيْرَانَ عَـبْرَ مَتَاهَـةِ الظُّلَـمِ
أَخِـي وَالسِّـجْنُ وَالْجَـلادُ مَـا صَـنَعَا فَتًـى حُـرًّا
تَعَالِيمُ الطُّغَاةِ "الصّيدِ" تُـرْدِي القِيمَـةَ الْكُـبْرَى
تُحِيـلُ اللَّيْـثَ أَرْنَبَـةً تُجِيـدُ الـذُّلَّ وَالْفَـرَّا
سِـجِلُّ حَيَاتِنَـا عِـبَرٌ، وَمَـا مِـنْ قَـارِئٍ يَقْـرَا[122]

ومن بين الموضوعات المتعلقة بالسجن موضوعان حظيا باهتمام شاعرنا، ***أولهما*** – مشهد التعذيب داخل السجن، و***ثانيهما*** – جناية السجن على حبه.

أما مشهد التعذيب فقد برع شاعرنا في رسمه، وتصوير الصراع غير المتكافئ بين جلاد متجبر، وسجين أعزل من خلال قصيدتين تقدمان موقفين مختلفين: موقف الصمود في قصيدته "زلزال الرفض"، وموقف الضعف والاعتراف في قصيدته "حبيبتي.. أنا اعترفت".

في قصيدته الأولى "زلزال الرفض"[123]، تصوير حي-من خلال حوار غير متكافيء-لمشهد تعذيب أحد السجناء، أغلب الظن أنه نجيب الكيلاني نفسه، وبخاصة أن ضميري الخطاب والتكلم يهيمنان على القصيدة، وفيها يتدرج الجلاد من الشتم والإهانة إلى الضرب والجلد، يريد ليحمل السجين على تقبل إهاناته وبذاءاته:

هَدَرَ الْجَلاد
وَالنَّارُ شَرَارٌ يَتَطَايَر

(122)-ديوان "عصر الشهداء": 63، 64.

(123)-ديوان "مهاجر": 25.

مِنْ عَيْنَيْه..

"كَلْبٌ أَنْت..

نَسْلُ كِلاب"

صِحْتُ جُنُونًا

"لا.. لا.. لا"

رَفَعَ السَّوْط !

"هَكَذَا السَّوْطُ.. دَلِيلٌ لَيْسَ يُدْحَضْ"

قُلْتُ " لا "

حتى إذا أعيا الجلاد سطوته وفحشه أمام صمود هذا السجين المسكين، لجأ إلى صور من الإغراء تذكر على الفور بما كانت تمارسه قريش مع محمد ﷺ لتثنيه عن دعوته؛ مما يؤكد أن خطة الباطل في مواجهة الحق واحدة؛ إذ يلجأ إلى الإغراء حين لا يجدي الإيذاء:

إِنْ تَشَأْ

يَسْجُدِ الْبَدْرُ بِكَفِّك

إِنْ تَشَأْ

تَرْكَعِ الشَّمْسُ بِبَابِك

تَنْثُرِ السُّحْبُ خُمُورًا بَابِلِيَّةْ

وَيَنَابِيعَ جَوَاهِر

وَثِمَارًا وَزُهُورًا

وَأَغَانِيَّ فَرِيدَهْ

ذَات سِحْرٍ مَلَكِيّ

قُلْتُ "**لا**"

ويعود الجلاد مرة أخرى إلى منطق الإهانة، بعد أن أخفقت حيلة الإغراء، وهو منطق غير مستغرب، إذا علمنا أن صاحبه حشاش عريق:

وَتَرَامَتْ نِقَمُ الطَّاغِي

بَذَاءَاتٍ رَخِيصَة

وَرَذَاذًا مِنْ حُرُوفٍ مُنْتِنَةْ

وَسُعَالا مُزْمِنًا

صَاعِدًا مِنْ صَدْرِ حَشَّاشٍ عَرِيقْ

كل هـذا والسـجين الأعـزل لا تلـين لـه قنـاة، ولا يعـرف غـير كلمـة "لا"، أو "زلـزال الرفض"، تجاوبه فيها كل الآفاق، هنا تأتي النهاية غير المتوقعة "سقط الجلاد مغشيًا عليه":

أَيُّهَا النَّخَّاسُ ذُو الْوَجْهِ الْكَرِيه

كُلُّ شَيْءٍ قَدْ يُبَاعْ:

دَنِسُ الأَعْرَاض

أَشْتَاتُ الْمُتَاعْ

وَالنُّفُوذْ

وَالْجَمَالْ

وَقَصِيدُ الشِّعْر

وَالتَّوَارِيخُ "وَأَشْجَارُ النَّسَبْ"

.....

غَيْرَ أَنَّا لا نَبِيعْ

ذَرَّةً مِمَّا حَبَانَا الله

صَرَخَ الْجَلادُ "كَلْب"

صِحْتُ **"لا"**

تَهْتِفُ الآفَاقُ **"لا"**

زَمْجَرَاتُ الرِّيحِ **"لا"**

وَهَدِيرُ الْمَوْجِ **"لا"**

عَالَمٌ يَهْدِرُ **"لا"**

سَقَطَ الْجَلادُ مَغْشِيًّا عَلَيْه

وَرُكَامُ الْوحْلِ حَتَّى حَاجِبَيْه..

وفى مقابل هـذا الموقـف الصـامد، يعـرض الكـيلاني في قصـيدته الثانيـة "حبيبتـي.. أنـا اعترفت"[124]، نموذجًا لسجين آخر تدفعه مرارة التعذيب إلى الاعتراف حتى بجـرائم لم يرتكبهـا، يريد لينجو من سياط جلاديه:

وَقَالَ لِي: "أَتَعْتَرِفْ"
مُنْذُ ثَلاثٍ لَمْ أَنَمْ
لَكَمْ أُرِيدُ أَنْ أَنَام
وَقُلتُ فِي مَرَارَة
"فَلْتُحْضِرُوا الْوَثِيقَة"!!
قَالُوا: نُعِدُّهَا
قُلْتُ: الْوَرَقْ
أُرِيدُ رقْعَةً بِلَا حُرُوف
بَيْضَاءَ أَوْ صَفْرَاءَ لا يَهُم
لِكَيْ أَخُطَّ عِنْدَ ذَيْلِهَا
اسْمِيَ وَاسْمَ أُسْرَتِي
بِمَحْضِ رَغْبَتِي
وَقَهْقَهَ الْمُفَتِّشُ الْكَبِير
- أَنَحْنُ نَفْتَرِي عَلَيْكُمُ الْكَذِب ؟
- مَعْذِرَةً إِلَيْكَ سَيِّدِي
فَأَنْتَ صَاحِبُ الْوَلاءِ وَالْوَفَاءِ وَالأَدَب
إِنِّي اعْتَرَفْتُ بِالَّذِي جَرَى
وَكُنْتُ أَنْوِي قَتْلَكُمْ
وَكُنْتُ أَبْغِي سَحْقَكُمْ

(124)-ديوان "أغنيات الليل الطويل"، ص 33، وهى أطول قصائد نجيب الكيلاني على الإطلاق.

obeikandl.com

قَرَّرْتُ أَنْ أُغَيِّرَ النِّظَام
وَتَمْتَمَ الْمُحَقِّقُ الْكَبِيرُ، وَانْبَرَى مُفَسِّرًا:
فَإِنَّهُ انْقِلاب
مَنِ الَّذِينَ حَرَّضُوك؟
وَمَنْ تُرَاهُم مَوَّلُوك؟
أَوْ دَرَّبُوك
أَوْ زَوَّدُوكَ بِالسِّلاح؟!
حَبِيبَتِي.. قَدْ اعْتَرَفْت
وَاعْتِرَافِي نَاقِص
وَلَيْسَ لِي مِنْ مَخْرَجٍ سِوَى الْمَزِيد
وَالْمَزِيدُ مِنْ كَلام
لأَنَّهُمْ لا يَقْنَعُون

وفيما يتعلق ***<u>بالموضوع الثاني</u>***: جناية السجن عليه وعلى محبوبته، فقد عالجه الكيلاني في قصيدتين متخذًا فيهما من ليلى "قيس" وسعاد "كعب" رمزًا لمحبوبته[125]، تناول في الأولى (السجن.. والحب.. والحرية)[126] قسوة السجن عليه، فقد فرق بينه وبين محبوبته، وقبر حلمه، وهصر حبه:

أَنَا الْمَحْزُونُ يَا لَيْلَى أُقَاسِي الْقَهْرَ وَالْجَوْرَا
طَوَى السَّجَّانُ وَشَادَ لِحِلْمِنَا قَبْرًا
أَحْلامِي
وَلَيْلُ الظُّلْمِ يَا لَيْلَى ثَقِيلٌ..يَقْصِمُ الظَّهْرَا
يُمَزِّقُ حُبَّنَا كُفْرًا وَيَذْبَحُ هَاهُنَا الشِّعْرَا

(125)-وربما كانا رمزين لمحبوبته الكبرى مصر.

(126)-ديوان "مهاجر": 58.

obeikandl.com

يُحَـاكِمُ كُـلَّ مَفْخَـرَةٍ يَـدِينُ الْحُـبَّ وَ الطُّهْـرَا
أَنَـا الْمَطْعُـونُ يَـا لَـيْلَى وَسَـهْمُ الْغَـدْرِ قَـدْ قَـرَّا
نَزِيفُ الـرُّوحِ يُجْهِـدُنِي وَلَيْـلُ الْعَسْـفِ مَـا مَـرَّا
نَسِيتُ شَـبَابِيَ الطَّـامِحَ وَالآمَـــالَ وَالـــذِّكْرَى

لكنه يبدو في القصيدة الثانية "سعاد والسجين"[127] أكثر إباءً، حين يعلن استعلاء حبهما على السجن والمصادرة وإن حالت القضبان بين جسديهما، فكيف تحول بين قلبيهما؟:

بَانَتْ سُعَادُ وَسَيْفُ الْجَوْرِ مَسْلُولُ وَدَمْعُهَـا بِشُـعَاعِ الْحُـبِّ مَجْـدُولُ
تَرْنُـو إِلَى قَسْـوَةِ الْقُضْـبَانِ بَاكِيَـةً قَلْبِـي يُعَانِقُهَـا وَالْجِسْـمُ مَعْـزُولُ
جَبِينُهَـا كَجَبِـينِ الْبَـدْرِ مُؤْتَلِـقٌ وَرِيحُهَـا بِـأَرِيجِ الـرَّوْضِ مَـأْهُولُ
لَقَـدْ تَعَـالَى هَوَانَـا عَـنْ مُصَـادَرَةٍ فَالرُّوحُ بِالْفَرَحِ الْقُدْسِيِّ مَوْصُـولُ
فِي رَوْضَةِ الْحُبِّ قَدْ هَامَتْ مُجَنِّحَةً وَلَحْنُهَـا الْبِكْـرُ تَكْبِـيرٌ وَتَهْلِيـلُ
قَـدِ اسْـتَحَالَ هَوَانَـا لَهْفَـةً وَمُنًـى كَـأَنَّمَا الْحُـبُّ أَشْـوَاقٌ وَتَرْتِيـلُ
دَعِـــي هَوَانَـــا أَنَاشِـــيدًا مُجَوِّبَـــةً وَلَـنْ يَشِـينَكِ لِلْعُـذَّالِ تَأْوِيـلُ
أَضْحَى هَوَانَـا بِنُـورِ الْحَـقِّ مُتَّصِـلا فَهَـلْ يَرُوعُـكِ هِجْـرَانٌ وَتَنْكِيـلُ

ومن ثم يداعبه الأمل في انقشاع الظلمة، وشروق فجر الحرية، ولقيا محبوبته، فقد جرت سنة الله بأن ليل الظلم إلى أفول:

وَفِي غَـدٍ تَفْـرَحُ الـدُّنْيَا لِفَرْحَتِنَـا عَـلَى جَبِينِـكِ لِلإِيـمَانِ إِكْلِيـلُ
وَتَلْتَقِي الـرُّوحُ وَالأَبْـدَانُ فِي وَطَـنٍ تَرَاجَعَـتْ عَـنْ مَغَانِيـهِ الأَبَاطِيـلُ
الْعَـدْلُ يَغْمُـرُهُ، وَالْحُـبُّ يَجْمَعُـهُ وَفَـوْقَ شَـطَّيْهِ تَكْبِـيرٌ وَتَهْلِيـلُ
فَـــلا خُلُـــودَ لِجَـــلادٍ بِأُمَّتِنَـــا وَلَـيْسَ فِي سُـنَّةِ الـرَّحْمَنِ تَبْـدِيلُ

(127)-ديوان "مدينة الكبائر": 35.

المبحث الثالث: مدح ورثاء

أولًا-المـدح:

شغل المدح شطر ديوان الكيلاني الأول تقريبًا، في حين ظهر كقصائد متناثرات في دواوينه التالية، وهذا يعني أن فن المديح عند شاعرنا قد مر بمرحلتين تحتاج كل واحدة منهما إلى وقفة خاصة.

المرحلة الأولى:

مرحلة البداية والترسم ويمثلها ديوانه الأول "نحو العلا"، وفيها كان المديح عامًّا؛ حيث مدح الكيلاني ناظر مدرسته الثانوية وبعض مدرسيه، كما مدح بعض الشخصيات التاريخية والمعاصرة، من أمثال: خالد بن الوليد ومحمد علي باشا وسعد زغلول ووزير المعارف.

وقد جاء مدحه لناظر مدرسته ومدرسيه في صورة مقطوعات شعرية تراوحت ما بين ثلاثة أبيات إلى أربعة أبيات، يدور المدح فيها حول الثناء على علمهم وخلقهم، وبهما صاروا مثلًا أعلى لطلابهم، ففي مدح ناظر مدرسته الأستاذ نجيب دميان-على سبيل المثال-يقول الكيلاني:

الْعِلْمُ وَالْخُلُقُ الْقَوِيمُ تَمَازَجَا ... فَبَدَا عَلَى أَثَرِ التَّمَازُجِ نَيِّرُ

وَخَطَا "نَجِيبٌ" بِالشَّبِيبَةِ هَادِيًا ... نَحْوَ الْعُلا وَكَذَا يَكُونُ الْمُصْهِرُ

فَالْعِلْمُ وَالْخُلُقُ الْقَوِيمُ أَسَاسُ مَا ... يَبْنِي مُرَبٍّ أَوْ يَشِيدُ مُعَمِّرُ[128]

كما يمدح الأستاذ "عبد الستار عجور" مدرس اللغة العربية، فلا يخرج عن هذه المعاني:

قَلَّدْتَ غَانِيَةَ الْبَيَانِ قَلائِدًا ... مِنْ دُرِّ قَوْلِكَ فَاسْتَزَادَتْ سُؤْدُدًا

وَسَرَتْ تُرَدِّدُ فِي الْوجُودِ ثَنَاءَهَا ... وَمَضَتْ تُغَرِّدُ خَيْرَ لَحْنٍ غُرِّدَا

فَالْبَسْ رِدَاءَ الْفَخْرِ تَيَّاهًا بِهِ ... إِنَّ الْفَخَارَ لَمِنْ أَجَلِّهِمُو يَدًا

وَلْتَأْخُذَنْ بِيَدِ الشَّبِيبَةِ هَادِيًا ... وَلْتَسْلُكَنْ بِهِمُ الطَّرِيقَ الأَمْجَدَا[129]

([128])-ديوان "نحو العلا": 11.

([129])-السابق: 12.

أما مدحه للشخصيات التاريخية والمعاصرة، فقد جاء في صورة مطولات، يختلط فيها المدح بالحقائق التاريخية، فحين يمدح شاعرنا "خالد بن الوليد" في قصيدة "سيف الله"[130] يتحدث عن نشأته في بيت رياسة وزعامة، ورث الحروب كابرًا عن كابر، فرضع "خالد" الشجاعة مع لبن أمه:

يَا بْنَ الْوَلِيدِ: لَكَ الْخُلُودُ قَصِيدَةً ... تَاقَتْ إِلَى تَرْدِيدِهَا الأَعْصَارُ

سَيَظَلُّ فِي الدُّنْيَا حَدِيثُكَ عَاطِرًا ... تَزْكُو بِنَظْمِ عُقُودِهِ الأَشْعَارُ

عَنْكَ الْقَرِيضُ يَصُوغُ خَيْرَ فَرَائِدٍ ... وَالْمَدْحُ فِيكَ مَعَزَّةٌ وَفَخَارُ

قَدْ فُقْتَ عَزْمَ الأُسْدِ فِي وَثَبَاتِهَا ... فَعَنَتْ لَكَ الأَجْنَادُ وَهْيَ كِثَارُ

مِنْ قَبْلُ كَانَ أَبُوكَ سَيِّدَ قَوْمِهِ ... يُومَا إِلَى إِقْدَامِهِ وَيُشَارُ

فَنَشَأْتَ فِي بَيْتٍ عَلَيْهِ مَخَايِلٌ ... مِنْ هِمَّةٍ دَارَتْ بِهَا الأَمْصَارُ

نَحْوَ الْيَمِينِ تَرَى الْمُهَنَّدَ قَانِيًا ... وَعَلَى الْيَسَارِ تَطَاحُنٌ وَشِجَارُ

وَالسَّيْفُ أَصْدَقُ صَاقِلٍ لِشَبِيبَةٍ ... يُرْجَى لَهَا شَرَفُ الْعُلا الدَّوَّارُ

تَخِذَ الرِّمَاحَ عَصَاهُ فِي إِرْضَاعِهِ ... حَتَّى نَمَا هُزَّتْ لَهُ الأَقْطَارُ

ثم يعرج شاعرنا على حادث إسلام "خالد" واستبشار الرسول والمؤمنين به، كما يثني على جهاده وجهاد المسلمين تحت لوائه يوم اليرموك، يوم هزم الروم شر هزيمة أمام جيش خالد:

للهَّ أَنْتَ وَقَدْ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا ... وَعَلَيْكَ مِنْ عَذْبِ الصَّلاحِ خِمَارُ

تَبْنِي لِدِينِ اللهَّ مَجْدًا سَامِقًا ... فَاسْتَبْشَرَتْ بِمَجِيئِكَ الأَنْصَارُ

وَتَهَلَّلَ الْمُخْتَارُ فَخْرًا يَوْمَهَا ... وَكَذَا يَكُونُ الْفَارِسُ الْمِغْوَارُ

فَانْدَكَّ صَرْحُ الْكُفْرِ مِنْ إِسْلامِكُمْ ... وَانْهَارَتِ الأَصْنَامُ وَالأَحْجَارُ

يَرْمُوكُ مَا يَرْمُوكُ إِلا وَقْعَةٌ ... لَمْ تُطْوَ مِنْ صَفَحَاتِهَا الأَدْهَارُ

دُنْيَا مِنَ الْبِيضِ الْقَوَاطِعِ قَدْ عَلَتْ ... ضَجَّاتُهَا فِي الشَّامِ وَالتَّهْدَارُ

---

(130)-السابق: 14.

فَـرَّتْ ذِئَـابُ الـرُّومِ عِنْـدَ لِقَـائِهِمْ وَالْفُـرْسُ فَـرَّ مَلِـيكُهُمْ وَالْغَـارُ

صَـيْحَاتُهُمْ دَوَّتْ فَرِيـعَ كُمَاتُهُـمْ مِنْ فِتْيَـةٍ رَكِبُـوا الزَّمَـانَ وَسَـارُوا

فَهَوَتْ قِـلاعُ الْجَـوْرِ تَحْـتَ سُـيُوفِهِمْ وَانْـدَكَّتِ الْجُـدْرَانُ وَالأَسْـوَارُ

طَلَبُـوا الْمَنِيَّـةَ فِي النِّـزَالِ فَأَعْرَضَـتْ وَقَدِ اعْتَرَى الْمَـوْتَ اللَّعُـوبَ نَفَـارُ

رَغِبُوا الشَّهَادَةَ وَهْـيَ أَشْرَفُ مَطْلَـبٍ فَـالْمَوْتُ فِي غَـيْرِ الشَّـهَادَةِ عَـارُ

على أن قوله "فالموت في غير الشهادة عار" لا يتناسب مع مدح رجل كخالد بن الوليد، لم يكتب الله له الشهادة رغم طول جهاده حتى لم يبق في جسمه موضع إلا وبه طعنة رمح أو رمية سهم أو ضربة سيف، لكنه مات على فراشه كما يموت البعير على حد قوله.

وقد كان حديث الشاعر عن جهاد المسلمين مدخلا إلى حنينه لعصر هؤلاء المجاهدين الذين لم يرضخوا لذل أو يستكينوا لظالم، ثم يختم قصيدته باكيًا من تذكر وفاة خالد:

عُـدْ يَـا زَمَـانُ إِلَى الْـوَرَاءِ لأَنَّنِـي لِلْخَالِـدِينَ وَنُـبْلِهِمْ غَيَّـارُ

قَـوْمٌ خِفَـافٌ فِي الشَّـدَائِدِ رُغَّـبٌ فِي الْمَجْدِ لَـوْ رَغِبُـوا النُّجُـومَ لَطَـارُوا

تِلْـكَ الْفَيَـافِي الْجُهْـمُ لَمْ تَـرَ مِـثْلَهُمْ فِي الْحَادِثَـاتِ إِذَا دَعَـاهُمُ ثَـارُ

يَا بْنَ الْوَلِيدِ وَقَفْتُ صَـوْبَكَ خَاشِـعًا أُزْجِـي الْقَـرِيضَ فَهَـاجَنِي اسْـتِعْبَارُ

تَغْـزُو وَتَفْـتَحُ وَالْحَيَـاةُ ضَـحُوكَةٌ وَالْحَـظُّ يُقْبِـلُ وَالرُّغَـابُ غِـزَارُ

وَإِذَا بِصَـوْتِ الْمَـوْتِ يَهْتِـفُ قَـائِلا: أَقْبِـلْ عَلَيْـكَ مِـنَ الْخُلُـودِ سِـتَارُ

ذِكْـرٌ جَمِيـلٌ وَالْخُلُـودُ تَـذَكُّرٌ وَالـذِّكْرُ فِي شَـتَّى الْعُصُـورِ مَنَـارُ

وإذا كانت الوقفة قد طالت قليلا أمام مدحة "خالد بن الوليد"، فإن الكيلاني لم يخرج في مدحه "سعد زغلول"، و"محمد علي باشا" عن هذا النهج من حشد كثير من المعلومات التاريخية في ثنايا مدحته، ففي مدحة سعد زغلول "يا حادي الركب"[131] يتحدث شاعرنا عن شجاعة "سعد"

(131)-ديوان "نحو العلا": 22.

ومضائه، وأنه ينمى لآباء شجعان لم يجثوا يومًا لسلطان، ثم يتناول نفيه في "سيشل" وما لقيه في منفاه من وصب، ثم يختم قصيدته بالدعاء له والترحم عليه:

يَا حَادِيَ الرَّكْبِ فِي جَرْدَاءَ مُوحِشَةٍ ... يَؤُمُّ أَعْطَافَهَا أَفْخَاخُ ذُؤْبَانِ

وَقَائِدَ الْقَوْمِ يَوْمَ الْهَوْلِ مُنْتَضِيًا ... سَيْفَ الْعَدَالَةِ مَشْحُوذًا لِخَوَّانِ

وَرَاءَكَ الْخَصْمُ يَبْغِي مِنْكَ مَأْمَلَهُ ... وَظَلَّ يُغْرِيكَ لَمْ يَرْجِعْ بِإِذْعَانِ

بُؤْ بِالْخَسَارَةِ يَا مِسْكِينُ إِنَّ لَنَا ... ضَمَائِرًا لَمْ تُبَعْ يَوْمًا بِأَثْمَانِ

تِلْكَ الْبِلادُ الَّتِي تَبْغُونَ ذِلَّتَهَا ... قَدْ أَزْعَجَتْ قَبْلَكُمْ "أَبْنَاءَ عُثْمَانِ"

وَسِرْتَ يَا "سَعْدُ" كَالْخَطَّارِ مُنْدَفِعًا ... وَمَا رَهِبْتَهُمُو يَوْمًا بِمَيْدَانِ

يَا صَادِقَ الْعَزْمِ خَبِّرْ عَنْ مَزَاعِمِهِمْ ... إِنَّا لَنَلْمَحُ مِنْهَا كُلَّ بُهْتَانِ

نَفَوْكَ فِي "سِيشِلٍ" لَمَّا رَأَوْكَ لَنَا ... يَوْمَ النِّضَالِ كَيَنْبُوعٍ لِظَمْآنِ

مَاذَا لَقِيتَ بِتِلْكَ الأَرْضِ مِنْ نَصَبٍ ... مَاذَا وَعَيْتَ لِذَاكَ الْغَابِرِ الْقَانِي

وَالنِّيلُ مُرْتَقِبٌ تَغْلِي مَرَاجِلُهُ ... كَأَنَّهُ جَالِسٌ مِنْ فَوْقِ نِيرَانِ

يَا حَارِسًا عِزَّةَ الْوَادِي وَشِرْعَتَهُ ... لِيَجْزِكَ اللهُ فِي جَنَّاتِ رِضْوَانِ

وينبغي ألا ننسى في هذا المقام انتماء أسرة الكيلاني إلى حزب الوفد، فقد كان هذا الانتماء وراء تلك المدحة التي نظمها في بداءة حياته الشعرية قبل أن يتحول انتماؤه إلى جماعة الإخوان المسلمين.

وفي مدحة محمد علي باشا "مجد على الدهر"[132]، يتحدث شاعرنا عن حب محمد علي لمصر الذي أنساه موطنه الأصلي، ثم يمتدح شعب مصر الباسل وجهاده ضد الطغاة والمعتدين، ويتخذ من المعارك التي خاضها جيش مصر في عهد محمد علي دليلا على هذه الشجاعة، مثل: معركة "عكا" و"نفارين"، و"ونصيبين"، ثم يختم قصيدته بالإشارة إلى النهضة الحضارية التي أقامها محمد علي في مصر، ولا ينسى شاعرنا أن يخص "فاروق"-وهو سليل أسرة محمد علي-ببيت في نهاية قصيدته:

([132])-السابق: 31.

ذِكْـرَى إِذَا عَرَضَـتْ يَوْمًـا لِوَادِينَـا هَفَتْ لَهَا النَّفْسُ وَاشْـتَاقَتْ قَوَافِينَـا

لِقَبْسَةٍ مِنْ شُعَاعِ الْخَـيْرِ قَـدْ هَـبَطَتْ بِأَيْكَـةِ النِّيـلِ فَانْجَابَـتْ دَيَاجِينَـا

مُحَمَّـــدٌ، رَدِّدَا ذِكْـــرَاهُ وَانْطَلِقَـــا وَلَقِّنَاهَـا شَـبَابَ النِّيـلِ تَلْقِينَـا

يَبْغِي الْحَيَاةَ وَلَوْلا مِصْرُ مَا بُغِيَتْ فَقَـدْ غَـدَا عَيْشُـهُ بِالنِّيـلِ مَرْهُونَـا

أَنْسَـاهُ حُـبٌّ لِـوَادِي النِّيـلِ مَوْطِنَـهُ فَـرَامَ فِي رَبْعِهَاعَيْشًـا وَتَوْطِينَـا

وَصَاحَ فِي سَـادَةِ الأَتْـرَاكِ وَيْحَكُمُـو إِنَّ الْمَمَالِـكَ أَيَّـامٌ وَيَمْضِـينَا

وَأُمَّـةُ النِّيـلِ يَـا أَتْـرَاكُ خَالِـدَةٌ إِنْ صَـالَ صَـائِلُهَا أَفْنَـى الْمُطَاعِينَـا

إِنْ كُنْـتَ تَبْغِـي لِهَـذَا الـدَّهْرِ مَـأْثُرَةً "عَكَّاءُ" تُنْبِئُكَ عَنْ جُنْـدٍ مُغِيرِينَـا

لَمْ يَعْتَرِضْ قَصْـدَهُمْ أَطْـوَادُ قَلْعَتِهَـا وَفِي "نُصَيْبِينَ" مَـا هَـابُوا سَـلاطِينَا

وَفِي "نَفَـارِينَ" وَيْـحَ الْجُنْـدِ وَيْحَهُـمُ فَـالْبَحْرُ يَقْـذِفُ فُـولاذًا وَغِسْـلِينَا

يَا صَاحِبَ النَّهْضَـةِ الشَّـمَّاءِ مَعْـذِرَةً عَنْ حَصْرِ نَعْمَائِكُـمْ كَلَّـتْ قَوَافِينَـا

أَقَمْـتَ فِي مِصْرَ مُلْكًـا أُسُّـهُ هِمَـمٌ وَالْعَـدْلُ أَعْمِـدَةٌ فَـازْدَادَ تَمْكِينَـا

ثُـمَّ الْعُلُـومُ وَكَانَـتْ شُـعْلَةً خَمَـدَتْ أَضَـأْتَهَا فَسَرَتْ تَهْـدِي الْمَلايِينَـا

"فَارُوقُ" مِـنْ بَعْـدِكُمْ يَخْطُـو بِأُمَّتِـهِ نَحْوَ الْعُـلا جَاهِـدًا لِلْخَـيْرِ يَهْـدِينَا

المرحلة الثانية:

وتشمل هذه المرحلة باقي دواوينه، وفيها صار المديح إسلاميًا صرفًا، أو إنه-على نحو من التجوز-صار نبويًا محضًا؛ إذ خلص المديح في تلك المرحلة-عدا ثلاث قصائد[133]-لمدح النبي ﷺ، والكيلاني ذاته يشير إلى هذه الحقيقة حين يقول:

أَنَا مَا مَدَحْتُ سِوَاكَ يَـا خَـيْرَ الْـوَرَى وَالسَّـائِرِينَ عَـلَى طَرِيقِـكَ لِلـذُّرَا

قَـدْ عَـاشَ شِـعْرِي سَـيِّدًا فِي قَوْمِـهِ مُتَرَفِّعًـا عَـنْ كُـلِّ زَيْـفٍ طَـاهِرًا

(133)-الأولى في مدح جمال الدين الأفغاني-ديوان "كيف ألقاك" ص 32، والثانية في مدح الإمام علي بن أبي طالب-ديوان "مهاجر" ص 57، والثالثة في مدح حسن البنا-ديوان "مهاجر" ص 68.

مُسْتَمْسِـــكًا بِإِبَائِـــهِ وَشُـــمُوخِهِ وَالشِّعْرُ قَـدْ أَمْسَـى يُبَـاعُ وَيُشْـتَرَى

غَنَّـى عَـلَى بَـابِ الْفُتُـوحِ قَصَـائِدًا تُـرْوَى، فَيَسْـمَعُهَا الزَّمَـانُ مُكَـبِّرًا

الطَّـــيْرُ تَعْزِفُهَـــا عَـــلَى أَغْصَـــانِهَا وَتَهِيمُ فِي أَجْوَائِهَـا أُسْـدُ الشَّرَى[134]

أما ***مدائحه النبوية*** فقد بلغت عشر قصائد موزعة بين دواوينه، ومن نافلة القول أن أشير إلى أن الكيلاني قد سُبق إلى المديح النبوي بشعراء آخرين كالبوصيري والبارودي وشوقي وأحمد محرم... وغيرهم، غير أن مدائح أولئك الشعراء قد بدا فيها التزام صارم بالحقائق التاريخية، كتناول المعارك التي خاضها النبيﷺ، كما تفيض أشعارهم بذكر المعجزات والخوارق التي ارتبطت بسيرة الرسولﷺ، فنحن نقرأ في أشعارهم عن تصدع إيوان كسرى، وخمود نار المجوس، وجفاف الماء في بحيرة ساوة، وضلال نهر الفرات طريقه ليصب في بادية السماوة، وعن الغمامة التي كانت تظلل النبي أينما سار، والنور الذي انبثق من أمه السيدة آمنة حين وضعته والذي بلغ أقصى الشمال حتى سوريا ..وغيرها من الخوارق.

لكن هم نجيب الكيلاني كان منصرفًا إلى بيان جوهر الرسالة المحمدية، فحين يتحدث الكيلاني عن مولد النبيﷺ، فإنه يرى فيه إيذانًا بزوال الظلم وأفول عهده واندكاك معالمه، وبشارة بمشرق الحق والعدل والحب والإخاء:

غَمَـــرَ الأَرْضَ وَالسَّـــمَاءَ بَهَـــاءً شَـــمْسُ عَـــدْلٍ تُبَـــدِّدُ الظَّلْـــمَاءَ

قَـــدْ تَجَـــلَّى نُـــورُ الْهِدَايَـــةِ طَلْقًـــا وَتَنَـــادَى الْعَبِيـــدُ "أَحْمَـــدُ جَـــاءَ"

خَشَـــعَ الْكَـــوْنُ كُلُّـــهُ وَتَغَنَّـــتْ مُفْرَدَاتُ الْوُجُـودِ نَشْوَى وِضَـاءَ

أَيُّهَا الشَّـارِدُونَ عُـودُوا إِلَى الرَّكْـبِ م وَزُفُّـــوا إِلَيْـــهِ ذَاكَ الْحُـــدَاءَ

ارْفَعُـــوا الـــرَّأْسَ عَالِيًـــا وَأَفِيقُـــوا شَـيِعُوا الْقَهْـرَ وَالأَسَـى وَالْعَنَـاءَ

قَـــدْ أَتَـــى دَاعِيًـــا إِلَى عَصْـرِ مَجْـدٍ جَعَـلَ الْحُـبَّ وَالإِخَـاءَ لِـوَاءَ

أَشْرَقَ الصُّـــبْحُ يَـــوْمَ مَوْلِـــدِ طَـــهَ وَغَـدَا الْكُفْـرُ وَالضَّـلالُ هَبَـاءَ

(134)-ديوان "مدينة الكبائر": 5.

إِنَّ مَـنْ أَوْسَـعُوا الْوُجُـودَ شَـقَاءً سَـقَطُوا الْيَـوْمَ ذِلَّـةً وَشَـقَاءَ[135]

كما كانت بعثة الرسول ﷺ بداية جهاد واصب لا يثنيه عنه اجتماع الباطل وجنده على مناوءة الدعوة الجديدة والكيد لها؛ فقد كان رسول الله ﷺ رابط الجأش عامر الإيمان، شجاعًا في مجابهة الخطوب والنوازل:

أَتَيْتُـكَ وَالـدَّمْعُ مِنِّـي جَـرَى يُرَطِّـبُ بِالشَّـوْقِ ذَاكَ الثَّـرَى
تُـرَدِّدُ رُوحِـي نَشِـيدَ الْهَـوَى وَيَخْفِـقُ بِالْقَلْـبِ مَجْـدُ الْـوَرَى
تَـذَكَّرْتُ ذَاكَ النِّـدَاءَ النَّـدِيّ يُجَلْجِـلُ فِي أُفْـقِ أُمِّ الْقُـرَى
دَعَـوْتَ إِلَى اللهِ ثَبْـتَ الْجَنَـانِ فَـمَا رَوَّعَتْـكَ صُـنُوفُ الْمِـرَا
تُبَشِّرُ بِالْخُلْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَجَنَّاتِـهِ الشَّـامِخَاتِ الـذُّرَا
وَتَنْشُرُ بَـيْنَ الرُّبُـوعِ الْهُـدَى فَيَنْسَـابُ فِي جَـدْبِهَا أَنْهُـرًا
عَجِبْـتُ لأَعْـزَلَ لا يَنْثَنِـي يُعَمِّـرُ بِالصِّـدْقِ مَـا دُمِّـرَا
يُوَاجِـهُ زَحْـفَ حُشُـودِ الطُّغَـاةِ شُـجَاعًا أَبِيًّـا كَأُسْـدِ الشَّرَى
وَفِي كَفِّـهِ سَـيْفُ إِيمَانِـهِ يَخُـوضُ بِـهِ الْمُلْتَقَـى ظَـاهِرًا
تُجَابِهُـهُ دَمْـدَمَاتُ الرُّعُـودِ فَيَهْزِمُهَـا بَاسِـمًا صَـابِرًا[136]

ولم يحفل نجيب الكيلاني-كذلك-بصفات النبي الجسدية، وجمال خلقته، كغيره من الشعراء؛ لأن ذلك ليس من عظمة الرسول أو الرسالة، إنما يتميز النبي ﷺ بأخلاقه السامية التي لا يدانيه فيها بشر، وحسبه أن يصفه ربه تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:3)، كما

(135)-السابق: 87.

(136)-ديوان "مهاجر": 52.

يقصر الرسول ﷺ الغاية التي من أجلها بعث على تتميم مكارم الأخلاق: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[137]، ومن ثم أشاد الكيلاني بأخلاق النبي -ص-، فأثنى على كرمه وعدله وبره وتقواه:

أَنْتَ الْجَوَادُ وَأَنْتَ رَبُّ الْمُنْزِلِ ... حُيِّيتَ مِنْ نَدْبٍ كَرِيمِ الْمَوْئِلِ

يُمْنَاكَ فَيْضُ الْبَحْرِ فِي آلائِهِ ... وَالْبِرُّ وَالنُّعْمَى ثَوَتْ فِي الشَّمْأَلِ

تَنْهَلُّ مِنْ فَمِكَ الطَّهُورِ رَوَافِدٌ ... هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ سَلْسَلٌ مِنْ سَلْسَلِ

آيَاتُ رَبِّي وَالْحَدِيثُ وَكُلُّ مَا ... يَأْتِي بِهِ وَحْيٌ لأَشْرَفِ مُرْسَلِ

قِفْ يَا زَمَانُ وَصُغْ قَصِيدًا خَالِدًا ... وَامْلأْ دَوَاوِينَ الدُّهُورِ وَسَجِّلِ

الْعَدْلُ وَالشُّورَى وَأَنْوَارُ الْهُدَى ... وَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَطُهْرُ الْمَنْهَلِ[138]

على أن هناك ثلاثة ملامح قد برزت بروزًا لافتًا في مدائح الكيلاني النبوية، يتعلق ***أولها*** بمطلع مدحته، فمن عادة شاعرنا أن يبدأ مدحته النبوية باكيًا ذنوبه، معترفًا بأخطائه، تائبًا توبة نصوحًا، مخالفًا بذلك عادة كثير من الشعراء في بدء مدائحهم النبوية بالنسيب، ولعله رأى النسيب مدخلًا غير مناسب لمقام النبي ﷺ، وكأني به يستقيل من ذنوبه، ويطهر صفحته حتى يكون أهلًا لمدح النبي ﷺ، أو لعل الأمر تخلية وتحلية إذا استعرنا لغة أهل التصوف، ولم يخرج الكيلاني عن هذا النهج إلا في ثلاث قصائد[139]، يقول الكيلاني في مطلع قصيدته "يا رسول الله"[140]:

طَرَقْتُ بَابَكَ وَالأَشْوَاقُ تَدْفَعُنِي ... وَرَوْعَةُ الْمَوْقِفِ الْمَأْمُولِ تُرْهِبُنِي

أَنُوءُ بِالنَّزَقِ الْمَاضِي وَأُبْرِزُهُ ... فَكَيْفَ تَقْبَلُنِي وَالْوِزْرُ يُثْقِلُنِي؟

لَكِنَّ غَيْثَكَ يَا "مُخْتَارُ" مُنْهَمِرٌ ... يَفِيضُ بِالْحُبِّ وَالآمَالِ وَالْمِنَنِ

([137])-أخرجه الإمام أحمد في مسنده 2/ 381 بهذا اللفظ، ورواه مالك في الموطأ بلفظ "بعثت لأتمم حسن الأخلاق" 2/ 904 من طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

([138])-ديوان "مدينة الكبائر": 77.

([139])-القصائد الثلاث بديوان "مدينة الكبائر": الأولى "الرحاب الطاهرة" ص5، والثانية "يا رسول الله" ص77، والثالثة "أيها الشاردون" ص87

([140])-ديوان "مهاجر": 36.

يَا سَيِّدَ الْخَلْقُ هَا قَدْ جِئْتُ مُعْتَرِفًا عَـمَّا أَلَمَّ بِقَلْـبِ الصَّـبِّ مِـنْ أَسَـنِ

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِـنْ مَيْـلٍ وَمِـنْ عَبَـثٍ أَنْتَ الْمُشَـفَّعُ يَـوْمَ الْهَـوْلِ وَالشَّـجَنِ

ويقول في مطلع قصيدته "على باب الرسول"[141]:

رَفَّ فِي خَـاطِرِي عَبِـيرُ الرَّجَـاءِ عِنْـدَ بَـابٍ مُسْـتَغِرقٍ فِي الضِّـيَاءِ

حَيْـثُ خَـيْرُ الْـوَرَى وَسِرُّ الْبَهَـاءِ أَحْمَـدُ الْمُرْتَجَـى لِيَـوْمِ الْعَنَـاءِ

مَزَّقَتْنِـي مَـوَاجِعِي وَشُـجُونِي أَرَّقَتْنِـي هَوَاجِسِي ـ وَظُنُـونِي

كُلَّـمَا جَفَّفَـتْ يَـدَايَ شُـؤُونِي عَـادَتِ الْعَـيْنُ لِلْبُكَـا وَالأَنِـينِ

أَنَـا مَـاضٍ مُلَفَّـعٌ بِالْخَطَايَـا أَنَـا قَلْـبٌ قَـدْ أَثْقَلَتْـهُ الرَّزَايَـا

أما ***<u>الملمح الثاني</u>*** فهو اتخاذ الكيلاني المديح النبوي تُكَأَةً لبث شكاته إلى الرسول ﷺ من العلل التي استشرت في جسم الأمة الإسلامية، ولينعى قيمًا تخلت عنها الأمة الإسلامية حين نسيت كتاب ربها وسنة نبيها وأخلدت إلى شهواتها، كما في قصيدته "الرحاب الطاهرة"[142]:

أَنَا يَـا رَسُـولَ اللهِ خَلْفَـكَ سَـائِرٌ أَيَضِـلُّ مَـنْ أَضْـحَى بِـدَرْبِكَ سَـائِرًا

هَـذِي جُمُـوعُ التَّـائِهِينَ تَنَـاثَرَتْ عَـبْرَ الْفَيَـافِي السُّـودِ يُشْـقِيهَا السُّرَى

اللَّيْـلُ كَـأْسٌ وَالنَّهَـارُ تَصَـارُعٌ بَـيْنَ الـذِّئَابِ وَغَانِيَـاتٌ تُكْـتَرَى

وَالْعَدْلُ قَدْ أَمْسَى حَدِيثَ خُرَافَةٍ وَالصِّدْقُ أَصْـبَحَ لِلسَّـذَاجَةِ مَصْـدَرًا

وَالْفَلْسَـفَاتُ تَطَـاوُلٌ وَتَخَـبُّطٌ وَالْفَـنُّ، صَـارَ الْفَـنُّ فِسْـقًا أَكْـبَرَا

وَالْفِكْـرُ يَمْسَـخُهُ الطُّغَـاةُ مَطِيَّـةً تَكْبُـوعَلَى أَرْضِ النِّفَـاقِ تَعَثُّـرًا

وَالْحُـبُّ نَـزْوَةُ سَـادِرٍ فِي غَيِّـهِ يُمْسِي ـ وَيُصْـبِحُ فِي الْمَبَـاذِلِ سَـادِرًا

مَا بَالُ قَوْمِيَ قَـدْ تَرَامَـى بَأْسُـهُمْ وَبَدَا الْوُجُـومُ عَـلَى الرُّبُـوعِ مُسَـيْطِرًا

هِـيَ أُمَّـةٌ تَقْتَـاتُ مِـنْ أَوْهَامِهَـا لَمْ يَعْقِلُـوا ذَاكَ النِّـدَاءَ الْمُنْـذِرَا

([141])–السابق: 64.

([142])–ديوان "مدينة الكبائر": 5.

نَـامُوا عَـلَى أَحْـلامِ مَجْـدٍ تَالِـد فَاجْتَـاحَهُمْ سَـيْلُ الْمُطَـامِعِ غَـادِرًا
وَالْمَجْـدُ صَـوْلَةُ مُقْـدِمٍ لا يَنْثَنِـي أَتُـرَى يَنَـالُ الْمَجْـدَ عُشَّـاقُ الْكَـرَى؟

وفيما يتعلق ***بالملح الثالث***، فإن نجيب الكيلاني غالبًا ما يختم المدحة النبوية بالتوسل أو التشفع بالنبي ﷺ إلى الله عز وجل أن يغفر ذنوبًا سلفت وآثامًا اقتُرفت، وطالما قرن الكيلاني بين تشفعه بالنبي لنفسه وبين تشفعه لأمته أن يتداركها الله بلطفه وأن يعيدها إلى حياض دينه، وينعم عليها بنصره وتأييده:

لَجَـأْتُ بِالرَّوْضَـةِ الْخَضْرَاءِ مُهْتَرِئًـا مَـرَارَةُ الْقَهْـرِ وَالأَحْـزَانِ تَمْلَؤُنِـي
وَرَحْمَـةُ اللهِ عَمَّـتْ كُـلَّ مُنْعَطَـفٍ إِنْسًـا عَـلَى الأَرْضِ أَوْ طَـيْرًا عَـلَى فَـنَنِ
فَـامْلأْ بِنُـورِكَ رُوحِـيْ إِنَّنِـي بَشَرٌ تَنْتَابُـهُ شَـطَحَاتُ الصَّـحْوِ وَالْوَسَـنِ
قَـدْ حَـاصَرَتْنِي شَـيَاطِينٌ مُعَرْبِـدَةٌ تَرَبَّصَـتْ فِي مَجَـالِ الْعَـيْنِ وَالأُذُنِ
وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَا فِي الْقَلْبِ مِـنْ أَمـلٍ فِي فَـيْضِ غَيْثِـكَ يَـا ذَا الْجُـودِ وَالْمِـنَنِ
وَامْسَحْ شُجُونَ حَيَاتِي وَهْيَ ضَـارِبَةٌ عَـبْرَ السِّـنِينَ وَمَـا تَنْفَـكُّ تَحْرِقُنِـي
وَارْحَـمْ فُـؤَادًا غَفَـا فِي لَيْـلِ مِحْنَتِـهِ لَمْ يَنْتَفِـعْ مِـنْ وَصَـايَا النَّاصِـحِ الْفَطِـنِ
يَا رَبِّ وَاجْمَعْ فُلُـولَ الْمُسْـلِمِينَ عَـلَى نُـورِ الْكِتَـابِ وَفَضْـلٍ مِنْـكَ مُـؤْتَمَنِ
وَعُـدْ بِرَايَاتِنَـا لِلنَّصْرِ خَافِقَـةً فَـإِنَّمَا أَنْـتَ مَـنْ نَرْجُـوهُ فِي الإِحَـنِ[143]

ومثل ذلك قوله:

ضَجَّ الْحَجِيجُ أَسًى وَانْسَـابَ مَدْمَعُـهُ فَضَـجَّ مِـنْ دَمْعِـهِ الأَرْكَـانُ وَالْحَجَـرُ
شَـدُّوا الرِّحَـالَ لِلُقْيَـا الْمُصْـطَفَى أُمَمًـا أَعْشَـى خُطَاهَـا الْخَنَـا الْمَـرْذُولُ وَالْحَـذَرُ
يَـا بَلْسَـمَ الْقَلْـبِ وَالآمَـالِ مَعْـذِرَةً كَلَّـتْ كَتَائِبُنَـا وَاسْـتَحْكَمَ الْخَطَـرُ
ضَلَّ الْعِطَاشُ طَرِيـقَ النَّبْـعِ وَانْتَثَـرُوا يـا وَيْحَهَـمْ فِي فَيَـافِي الْبُـؤْسِ قَـدْ نُثِـرُوا

(143)-ديوان "مهاجر": 37-38.

فَاشْـفَعْ لِجِيـلِ الْخَطَايَـا وَارْوِ ظَامِئَـهُ يَـا رُبَّ يَـوْمٍ بِـهِ الآمَـالُ تَزْدَهِـرُ[144]

ولا ريب في أن الكيلاني قد تأثر في تشفعه بالرسول ﷺ بمدائح شوقي والبوصيري[145] من قبله، لا سيما قصيدتا "البردة" للبوصيري، و"نهج البردة" لشوقي، آية ذلك بيتان وردا في إحدى مدائح الكيلاني النبوية، وهما:

1ـ قوله في قصيدة "العطاش: في مسجد الرسول"[146]:

يَا سَيِّدِي وَإِمَامِي **وَالْهَوَى قَدَرٌ** خَشَعْتُ فِـي جَنَبَاتِ الْبَيْتِ أَنْتَظِرُ

فقد تأثر فيه بقول شوقي:

يَا لائِمِي فِي هَوَاهُ ***وَالْهَوَى قَدَرٌ*** لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَـمْ تَعْزِلْ وَلَمْ تَلُمِ

2ـ وقوله في القصيدة نفسها:

أَبْكِي عَلَـى نَفَحَاتٍ جَلَّ بَارِئُهَـا وَشَعْشَعَاتُ ***الْهَوَى الْعُذْرِيِّ*** تُحْتَضَرُ

فهو متأثر فيه بقول البوصيري:

يَا لَائِمِي فِي ***الْهَوَى الْعُذْرِيِّ*** مَعْذِرَةً مِنِّي إِلَيْكَ وَلَـوْ أَنْصَفْتَ لَـمْ تَلُمِ

أما ثلاث القصائد المستثناة، فإن مدحة "حسن البنا" أعلاها كعبًا، وأطولها نفسًا، وأصدقها عاطفة؛ حيث غلب على مدحتيه الأخريين "جمال الدين الأفغاني"، و"الإمام علي بن أبي طالب" الروح النثرية، والفتور العاطفي، فضلًا عن الأخطاء النحوية والتعبيرية، ففي مدحته "رسالة إلى جمال الدين الأفغاني"[147] يقول:

أَيُّهَـا الـرَّاكِضُ فِي دُنْيَـا الْفِكَـرْ صَـائِبَ الآرَاءِ كَالسَّـيْفِ الأَغَـرّ

فِي حَنَايَـاكَ فُـؤَادٌ ذَاكِـرٌ وَبِعَيْنَيْـكَ بَرِيـقٌ لا يَقَـرّ

---

(144)–ديوان "عصر الشهداء": 90، 91.

(145)–جمع شوقي في مدائحه بين التشفع بالرسول لنفسه ولأمته، وقد فعل الكيلاني الشيء نفسه، في حين قصر البوصيري تشفعه على نفسه فحسب، انظر: د. أحمد الحوفي: الإسلام في شعر شوقي، ص 150، 154.

(146)–ديوان "عصر الشهداء": 89.

(147)–ديوان " كيف ألقاك": 32.

obeikandi.com

وَبِكَفَّيْـــكَ كِتَـــابٌ خَالِـــدٌ عَـــامِرٌ بِـــالْحَقِّ وَالآيِ الأُخَـــرْ
شِـــيمَةُ الأَحْـــرَارِ بِـــرٌّ وَهُـــدًى هَكَـذَا الإِسْـلامُ فِي مَـاضِي الْخَـبَرْ
يَـا جَمَـالَ الـدِّينِ أَيْقِـظْ أُمَّـةً سَادَهَا الْعَسْـفُ طَـوِيلا وَاسْـتَقَرّ
امْـــلأِ الآفَـــاقَ تَكْبِـــيرًا وَلا تُلْـقِ بِـاللَّوْمِ عَـلَى الْغَـزْوِ الْقَـذِرْ
إِنْ يَكُـنْ سَـيْفُكَ سَـيْفًا مُسْـلِمًا **يَتَهَـــاوَى** كُـــلُّ فَـــدْمٍ مُحْتَقَـــرْ
وَإِذَا الإِيـــمَانُ أَحْيَـــا أُمَّـــةً لَمْ تُرَوِّعْهَـــا تَهَاوِيـــلُ الْخَطَـــرْ

وإذا أغضينا الطرف عن رفعه الفعل "يتهاوى" رغم وقوعه في جواب الشرط، فما معنى قوله "الآي الأخر"، وهل يتفق مع إسلاميته أن يستغيث بجمال الدين وهو رجل مقبور لإنقاذ الأمة، ثم ألا يُشعِرُ قَولُه "هكذا الإسلام في ماضي الخبر" بأنه خبر متهم ظنين؟

وفي مدحة علي بن أبي طالب "الإمام"[148]، يغلب الأسلوب الخبري الجاف الذي يقرب القصيدة من مشارف النثرية، حتى لتبدو القصيدة مجموعة من التقريرات قد رُصت رصًا:

قُلْـتُ مَـن؟ قَـالُوا حَبِيـبُ الْفُقَـرَاء شَـامِخُ الْجَبْهَـةِ مَرْفُـوعُ اللِّـوَاء
زَاهِـدٌ فِي كُـلِّ مَـا مِـنْ شَـأْنِهِ يُـوهِنُ الـرُّوحَ وَيُـذْرِي بِالنَّقَـاء
صَـانِعٌ فِي كُـلِّ يَـوْمٍ آيَـةً لَـيْسَ فِي مَضْـمُونِهَا أَيُّ مِـرَاء
وَفَقِـيرٌ بَـيْنَ جَنْبَيْـهِ رِضًـا لا تُـدَانِيهِ كُـنُوزُ الأَغْنِيَـاء
مَلَـكَ الْعَـالَمَ فِي قَبْضَـتِهِ لَيْسَ فِي الْقَلْبِ سِوَى نَهْرِ الصَّفَاء
تَاجُـهُ عَـدْلٌ وَصِـدْقٌ وَهُـدًى وَسَـمَاءُ الْعَـرْشِ بِـالآيِ الْوِضَـاء
يَـا بْـنَ عَـمِّ الْمُصْـطَفَى يَـا مَـنْ لَـهُ فِي رِحَـابِ الْمَجْـدِ مَوْفُـورُ الثَّنَـاء
لَمْ يَـزَلْ عَهْـدُكَ فِي صُـحْفِ الْـوَرَى عَلَـمَ الْهُـدَى وَنِـبْرَاسَ الْفِـدَاء
أَنْـتَ وَالزَّهْـرَاءُ نَجْـمَانِ هُمَـا فِي سَـمَاءِ الْخُلْـدِ أَسْـمَى مِـنْ سَـمَاء
فِي رِحَابِ الْمُصْـطَفَى ذُقْـتَ الْهَـوَى وَرَضَعْتَ الْمَجْـدَ مِـنْ نَبْـعِ الضِّـيَاء

(148)-ديوان "مهاجر": 57.

عِشْـــتَ لِلأَبْـــرَارِ رَمْـــزًا شَـــامِخًا وَتَرَبَّعْـــتَ عَـــلَى عَـــرْشِ الإِبَـــاء

أما مدحة "الإمام الشهيد حسن البنا"[149]، فهي مطولة من ثمانين بيتًا، وقد سلفت الإشارة إلى سموها على المدحتين السابقتين، وربما يرجع ذلك إلى غلبة المعاني السياسية فيها على المديح، فما يكاد شاعرنا يبدأ قصيدته مستبشرًا بظهور "حسن البنا"، وميلاد دعوته الجديدة، حتى يدلف من ذلك إلى نعي واقع الأمة المخزي معددًا مثالبه وسوءاته، يتخذ ذلك وليجة لبيان أثر "حسن البنا" في إيقاظ الأمة من سباتها، وتجديد روح الإيمان فيها:

حِينَ جَاءَ الْوُجُـودَ ذَاتَ مَسَـاء غَمَرَتْـهُ مَوَاكِـبٌ مِـنْ ضِـيَاء

وَتَهَادَتْ مَلائِكُ الْحُبِّ نَشْـوَى بِنَشِـيدٍ مُضَـمَّخٍ بِالْبَهَـاء

قِيـلَ هَـذَا بَشِـيرُ خَـيْرٍ وَمَجْـدٍ فِي سَـمَاءِ الْوَلِيـدِ نَجْـمُ عَـلاء

تَوَّجَتْـهُ طَهَـارَةٌ وَنَقَـاءٌ وَمِهَـادٌ يَفِـيضُ بِـالآلاء

ثم يخاطب "حسن البنا"، مبينًا واقع الأمة وقت ظهوره ومشيدًا بأثر دعوته:

جِئْـتَ فِي أُمَّـةٍ سَـبَاهَا ضَـيَاعٌ غَشِـيَتْهَا جَحَافِـلُ الظَّلْـمَاء

بَاغَتَتْهَـا الـذِّئَابُ شَرْقًـا وَغَرْبًـا ثُـمَّ عَاثَـتْ فِي أَرْضِـهَا الْخَضْرَاء

وَالْمَحَارِيـبُ يَعْتَرِيهَـا وُجُـومٌ وَنَشِـيدُ الرُّعَـاةِ فَـيْضُ بُكَـاء

وَقُصُـورُ السُّـلْطَانِ وَكْـرُ فُجُـورٍ وَالـدَّوَاوِينُ سُرْبِلَـتْ بِرِيَـاء

وَالطَّوَاغِيـتُ يُعْبَـدُونَ ضَـلالا وَالْقَـرَابِينُ رُوِّيَـتْ بِالـدِّمَاء

....

أَشْرَقَ الصُّـبْحُ مُونِقًـا بِالأَمَـانِي حِـينَ نَـادَى الْبَنَّـاءُ فِي الأَوْطَـان

"إِنَّـمَا الْحُـرُّ مَـنْ يُجِيـدُ ضِرَابًـا لا ذَلِيـلٌ يَخِـرُّ لِلأَذْقَـان"

ارْفَعُـوا رَايَـةَ الْجِهَـادِ أُبَـاةً وَاسْـتَظِلُّوا بِرَايَـةِ الْقُـرْآن

لا تَهَـابُوا الْمُنُـونَ إِنَّ حَيَـاةً تَرْتَضِي الـذُّلَّ مَنْـزِلٌ مِـنْ هَـوَان

([149])-السابق: 68.

وَاجْعَلُوا الْمَسْجِدَ الطُّهُورَ مَلاذًا لِبِنَـــاءِ الأَرْوَاحِ وَالأَبْـــدَان

وَتَنَـــادَوا إِلَى الْجِهَـــادِ أُسُـــودًا إِنَّ فِي السَّـيْفِ رَائِعَـاتِ الْمَعَـانِي

كما يصب جام غضبه على ساسة الغرب الذين دأبوا على الكيد للعالم الإسلامي، ومن ثم يدعو إلى جهاد الظلم والطغيان في كل صوره وأشكاله، وعدم الرضا بحياة الذل والخنوع، ثم يختم قصيدته مشتاقًا إلى الماضي الوضيء، يوم قوض المسلمون بجهادهم ملك فارس والروم ونشروا الهدى والحب والعدل في ربوع الأرض:

فَأَقَـامُوا حَضَـارَةً لا تُبَـارَى لَمْ يُلَوِّثْ نَقَاءَهَا الشَّرَّ وِزْرُ

قَدْ تَآخَى عُجْمٌ وَيَعْرُبُ فِيهَا وَتَآخَى خُصُومُ بَكْرٍ وَبَكْرُ

وَحَّدَتْ رَبَّهَا وَحَثَّتْ خُطَاهَا تَغْمُرُ الْكَوْنَ وَالْعَقِيدَةُ سِتْرُ

ثانيًا-الرثاء:

يلتقي فن الرثاء الشعري في كثير مع فن المدح. أليس هو تعدادًا لفضائل المتوفَّى ومآثره؟ ومن ثم فإننا نتوقع أن يكون مدار الرثاء على المعاني التي تبرز في الوقت نفسه في قصيدة المدح[150]، على أن هذا التشابه بين الفنين لا ينبغي أن يُلغيَ الحدود والفوارق بينهما، إذ يظل لكل فن منهما ميسمه الخاص به، والذي يتجلى أوضح ما يتجلى في مفردات المعجم الخاص بكل منهما؛ فعلى حين يتكئ فن الرثاء على مفردات ترتبط بجو الموت وحقله الدلالي من نحو الدمع، والبكاء، والأنين، والمصاب، والفراق، والحسرة..وغيرها، يتحامى فن المديح أمثال تلك المفردات.

ويلفت النظر في مراثي الكيلاني-على قلتها مقارنة بمدائحه-أنها لم تكن في أشخاص تربطهم به علاقة خاصة من صداقة أو قرابة[151]، وإنما تتناول مراثيه شخصيات عامة: إسلامية وسياسية وأدبية، وربما كان ذلك سببًا في عدم ظهور التفجع والأنين في مراثيه على نحو واضح؛ فليست النادبة كالثكلى، وربما يعود إلى السبب ذاته أن آضت المرثية الكيلانية وسيلة لا غاية يعرض فيها

([150])-نقلًا عن د. عز الدين إسماعيل: في الشعر العباسي-الرؤية والفن، دار المعارف، ط2-1980م، ص362 بتصرف.

([151])-يُستثنى من ذلك قصيدة وحيدة في رثاء أخيه "أمين".

حقيقة الحياة والموت، ويقدم من خلالها نقدًا للواقع الأسيف الذي تحياه الأمة الإسلامية، وبذلك تخرج المرثية عنده من حيز الرثاء الشخصي إلى حيز إنساني عام.

ولم يخرج الكيلاني في مراثيه عما جرت عليه المراثي العربية قديمًا، من الإشادة بمآثر المتوفى ومناقبه، وخصوصًا إذا كان من الساسة الكبار، أو المجاهدين، أو رواد الإصلاح الداعين إلى نهضة الأمة الإسلامية علميًا واجتماعيًا وحضاريًا، مثل رثائه حسن البنا وعمر التلمساني، وسليمان خاطر والرئيس الباكستاني ضياء الحق. كما نلمح في مراثيه التحذير من الركون إلى الدنيا، والاغترار بمتاعها الخلب، ونلمح كذلك الصبر والرضا بقضاء الله وقدره، والدعوة إلى أخذ العبرة من الموت، والعمل ليوم الحساب، كما في رثائه أخاه "أمين"، والشيخ عطية المرعز، والشاعر علي محمود طه.

يفتتح الكيلاني مرثيته في حسن البنا "ذكرى الإمام الشهيد"[152]، ناعيًا حال بلاده وما باتت تقاسيه من ظلم وفساد:

يَا عَاشِقَ الْحَقِّ وَالْمُخْتَارِ وَالسُّنَنِ ... يَا هَادِمًا لِحُصُونِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِ

أَشْرِقْ بِنُورِكَ فِي آكَامِ ظُلْمَتِنَا ... وَامْدُدْ يَدَيْكَ لِجِيلٍ شَابَ فِي الإِحَنِ

الْحُبُّ جَانَبَنَا وَالنَّصْرُ خَاصَمَنَا ... اللهُ يَعْلَمُ كَمْ يَلْقَى الأَذَى وَطَنِي

رُوحِي تُعَانِي مِنَ الآلامِ وَاهِيَةً ... وَاسْتَحْكَمَتْ نُوَبُ الأَسْقَامِ فِي بَدَنِي

بِلادُنَا أَصْبَحَتْ مَرْعًى لِذِي سَفَهٍ ... بِعْنَا الْهُدَى وَالتُّقَى فِيهَا بِلا ثَمَنِ

بَاتَتْ قُرَانَا تُقَاسِي مِنْ مَظَالِمِهِ ... وَمَا تَهَادَى ضِيَاءُ الْحَقِّ فِي الْمُدُنِ

نَادَيْتَ يَا "حَسَنُ الْبَنَّا" فَمَا رَجَعَتْ ... رُبُوعُنَا غَيْرَ أَصْدَاءٍ مِنَ الْحَزَنِ

ثم يدلف من ذلك إلى مقتل "حسن البنا"، إثر حادث اغتيال أثيم دبره القصر الملكي، فأثلج به صدور أعداء الإسلام، حين أراحهم من ذلك الداعية الذي يتزايد أتباعه يومًا بعد يوم:

غَالُوكَ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ كَالِحَةٍ ... وَغَيَّبُوا قَلْبَكَ الْمِعْطَاءَ فِي كَفَنِ

(152)-ديوان "مهاجر": 76.

ظَنُّوا دِمَاءَكَ تُطْفِي مِنْ سَخِيمَتِهِمْ وَتُخْمِدُ الثَّوْرَةَ الْكُبْرَى مَعَ الزَّمَنِ

وَتَسْتَبِيحُ لِعَرْشٍ مَا يَنُوءُ بِهِ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالإِسْفَافِ وَالْفِتَنِ

غَالُوكَ كَيْ يَحْفَظُوا لِلْمُلْكِ هَيْبَتَهُ وَيُصْلِحُوا مَا أَصَابَ الْقَصْرَ مِنْ وَهَنِ

وَحَقَّقُوا لِبَنِي صُهْيُونَ غَايَتَهُمْ إِذْ دَبَّرُوا كَيْدَهُمْ فِي مَحْفَلٍ نَتِنِ

كَنَائِسُ جَلْجَلَتْ أَجْرَاسُهَا طَرَبًا وَرَتَّلُوا صَلَوَاتِ الْمُذْبَحِ الأَسِنِ

يَا قَلْبُ مَا لَكَ لا تَنْشَقُّ مُنْفَطِرًا مِنَ الْخُطُوبِ وَلا تَنْفَضُّ مِنْ شَجَنِ

دِيسَتْ مَفَاخِرُنَا، ضَاعَتْ مَبَادِئُنَا فَإِنْ تَهُنْ قِيَمٌ فِي دَارِنَا نَهُنِ

ويستعرض الكيلاني بعد ذلك جهاد "حسن البنا" في نشر دعوته في مدن مصر وقراها، وتربيته أتباعه على مبادئ الإسلام، ثم يختم قصيدته داعيًا له بالنعيم في جنة الخلد:

جُبْتَ الْمَدَائِنَ تَدْعُو لِلْهُدَى أُمَمًا غَابَتْ عَنِ الْوَعْيِ وَانْسَاقَتْ مَعَ الْفِتَنِ

يَا حَامِلا رَايَةَ التَّوْحِيدِ فِي زَمَنٍ بِالشِّرْكِ وَالْفِتْنَةِ الْعَمْيَاءِ مُمْتَحَنِ

الْحُبُّ زَادُكَ وَالرَّحْمَاءُ أُغْنِيَةٌ وَالطُّهْرُ رَكْبُكَ يَا أُسْطُورَةَ الزَّمَنِ

إِذَا ذَكَرْتُ فُيُوضَ اللهِ فِي وَطَنِي فَأَنْتَ أَعْظَمُ مَا أَضْفَى مِنَ الْمِنَنِ

نَمْ يَا شَهِيدُ مَعَ الأَبْرَارِ فِي سَكَنٍ أَنْعِمْ بِهِ أَيُّهَا الْبَنَّاءُ مِنْ سَكَنِ

مَا زَالَ جُنْدُكَ فِي زَحْفِ الْهُدَى زُمَرًا يَدْعُونَ لِلْمَجْدِ وَالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

وَمَا تَزَالُ فِلِسْطِينُ مُضَيَّعَةً تَرْنُو إِلَيْكَ بِعَيْنِ الشَّوْقِ وَالشَّجَنِ

واضح أن هذه القصيدة أقرب إلى الشعر السياسي منها إلى شعر الرثاء، غير أن هناك مرثية أخرى لنجيب الكيلاني في "حسن البنا" تبدو أصدق عاطفة وأقل خطابية، وهي بعنوان "مات الإمام"[153]، يقول فيها:

مَاتَ غِيلَه

أَغْرَقُوا أَحْلامَهُ الْبَيْضَاءَ فِي نَهْرِ الأَفَاعِي

(153)-ديوان "عصر الشهداء": 100.

رَشَقُوهُ بِادِّعَاءَاتٍ وَبِيلَه
دَفَنُوهُ فِي سَرَادِيبِ التُّخُومْ
لا مُرِيدْ
يَنْثُرُ الدَّمْعَ عَلَى قَبْرِ الشَّهِيدْ
مَاتَ وَالْبَسْمَةُ فَوْقَ الشَّفَتَيْن
ضَوْؤُهَا قَدْ طَارَ عَبْرَ الْخَافِقَيْن
مَاتَ رُبَّانُ الْحَقِيقَهْ
بِيَدِ الْقُرْصَانِ وَالْقُرْصَانُ غَادِرْ
مَاتَ وَالأَرْضُ حَوَالَيْهِ خُشُوعْ
وَدُمُوعْ...

أما قصيدته في رثاء "عمر التلمساني"[154]، فهي إلى المديح أقرب منها إلى الرثاء؛ فرغم أن عنوان القصيدة "دمعة وفاء في رثاء المجاهد الكبير عمر التلمساني"[155] فلا دمع هنالك ولا بكاء، ولا يستشعر قارئها جو الموت والحزن بقدر ما يستشعر معاني الصمود والثبات، ومن ثم فالقصيدة كلها إشادة بمناقب "التلمساني"، وجهاده وثباته في سبيل دعوته، وصبره على ليالي السجن رغم جحيمها وأساها:

حَمَلَ الْعِبْءَ فِي اللَّيَالِي الشَّهِيدَه ... شَامِخَ الرَّأسِ كَالْجِبَالِ الْعَتِيدَهْ
عَابِدًا.. خَاشِعًا وَفِي مُقْلَتَيْهِ ... نَبَضَاتُ التُّقَى وَنُورُ الْعَقِيدَهْ
رَافِعًا رَايَةَ الْجِهَادِ بِعَزْمٍ ... عُمَرِيٍّ، وَأُمْنِيَاتٍ مَجِيدَهْ
حَاصَرَتْهُ الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ... وَهْوَ لَيْثٌ يَبُثُّ فِيهِمْ رُعُودَهْ

(154)-هو عمر عبد الفتاح بن عبد القادر مصطفى التلمساني، ترجع أصوله إلى تلمسان بالجزائر، ولد في مدينة القاهرة 1904، وتخرج في كلية الحقوق 1933م، تولى منصب المرشد العام للإخوان المسلمين 1973م، وتوفي عام 1986م، انظر: عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية-القاهرة، الطبعة الثالثة 1426هـ-2005م، ص13.

(155)-ديوان "مدينة الكبائر": 9.

يَنْثُـــرُ الـــدُّرَّ مِـــنْ شِـــفَاهِ وَلِيٍّ حِكَـمًا غَضَّـةً، وَنُعْمَـى فَرِيـدَهْ
صّـــوْتُهُ عَـــامِرٌ بِطُهْـــرٍ مُصَـــفًّى مَـاجَ فِي قَلْبِـهِ وَغَـذَّى وَرِيـدَهْ
فِي جَحِيمِ "الْوَاحَـاتِ" هَـزَّ نَـدَاهُ "قَيْصَرَ النِّيلِ" وَالْحُشُودَ الْبَلِيدَهْ
قَـدْ غَـدَا الْقَـيْظُ جَنَّـةً وَأَرِيجًـا وَظِـــلالا قُدْسِـــيَّةً مَمْـــدُودَهْ
وَلَيَـالِي السِّـــجْنِ رُغْـــمَ أَسَـــاهَا أَسْفَرَتْ بَضَّـةً كَـأَحْلَى قَصِـيدَهْ
كَأْسُـهُ الـذِّكْرُ وَالصَّـلاةُ وَصَـبْرٌ بَيْتُـــهُ خَيْمَـــةٌ بَنَاهَـــا وَطِيـــدَهْ
حَاصَرَتْهَـا عَوَاصِـفٌ وَرُعُـوُدٌ فَاسْـتَمَرَّتْ أَطْنَابُهَـا مَشْـدُودَهْ
حَفِـــظَ اللهُ عَبْـــدَهُ وَرَعَـــاهُ وَنَفَى عَنْـهُ كُـلَّ بَلْـوَى شَـدِيدَهْ

وتشبه مرثيةُ "سليمان خاطر"[156] مرثيةَ "حسن البنا"؛ إذ يتخذ الكيلاني من مقتل "سليمان خاطر"[157] بأيدي الموساد اليهودي سبيلًا إلى النقد السياسي، وبكاء الأوطان الرازحة تحت نير الاحتلال الصهيوني، في حين تتهم الحكومات العربية بنيها الشرفاء بالخيانة:

مَـاذَا أَقُـولَ وَدَمْـعُ الْعَـيْنِ هَتَّـانُ؟ يَا وَيْـحَ شِـعْرِيَ تَكْبُـو فِيـهِ أَوْزَانُ
وَكَيْـفَ أُطْلِـقُ آهَـاتِي وَأُشْـعِلُهَا وَالـرُّوحُ يَقْهَرُهَـا قَيْـدٌ وَسَـجَّانُ
أَضْحَى سُلَيْمَانُ بَيْنَ الْجِيلِ مَلْحَمَـةً غَـــرَّاءَ يَغْمُرُهَـــا عَـــزْمٌ وَإِيـــمَانُ
رَوَّعْتَ شِرْذِمَـةً نَامَـتْ عَـلَى وَهَـنٍ وَأَنْـــتَ بِالقِمَّـــةِ الشَّـــمَّاءِ يَقْظَـــانُ
يَا حَارِسَ الْمَـدْخَلِ الشَّرْـقِيِّ مَعْـذِرَةً قَـدِ اسْـتُبِيحَتْ لَنَـا دُورٌ وَأَوْطَـانُ

([156])–السابق: 38.

([157])–سليمان محمد عبد الحميد خاطر، رقيب في قوات الأمن المركزي، ولد بقرية "أكياد" بمحافظة الشرقية، وقد قام يوم 5 أكتوبر 1985 من موقعه في" برقة" بسيناء، بإطلاق النار على مجموعة من الإسرائيليين، فأصاب منهم اثني عشر، سبعة قتلى وخمسة جرحى، وبدلًا من أن يقدم إلى محكمة مدنية، قدم استثناءً إلى محكمة عسكرية محاطة بالسرية، وحُكم عليه في 28 ديسمبر 1985 بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وفي 31 ديسمبر 1985 نشرت جريدة " الأنباء" الكويتية أن أحد المصورين الإسرائيليين ضرب سليمان خاطر على رأسه داخل السجن، وبعد نقله إلى المستشفى العسكري فوجئ الحراس به معلقًا بمشمع الفرش الخاص به بالقضبان الحديدية بشباك غرفته بالمستشفى، وقيل يومها إنه انتحر. راجع: د. علي جريشة: حاضر العالم الإسلامي، مكتبة وهبة، ط4ـ 1991م، ص 297 وما بعدها.

إِذَا رَدَدْتَ بَنِي صُهْيُونَ عَـنْ وَطَنِـي فَأَنْـتَ فِي سَـاحَةِ التَّحْقِيـقِ خَـوَّانُ

وَإِنْ صَـدَعْتَ لأَمْـرِ الْحَـقِّ فِي ثِقَـةٍ تَنَاوَشَـــتْكَ ثَعَـــابِينٌ وَذُؤْبَـــانُ

الْقُدْسُ تَضْرَعُ وَالأَقْصَى- يُهِيبُ بِنَـا وَكَـمْ تُعَـانِي مِـنَ الأَرْزَاءِ لُبْنَـانُ

غَـــالُوكَ فِي لَيْلَـــةٍ صَـــمَّاءَ كَالِحَـــةٍ وَالْبَـدْرُ مُحْتَـبِسٌ وَالْقَلْـبُ ظَمْـآنُ

وَمَـــا دَرَوْا أَنَّ عَـــيْنَ اللهِ سَـــاهِرَةٌ وَلَـــيْسَ يُظْلَـــمُ عِنْـــدَ اللهِ إِنْسَـــانُ

وقد رثى شاعرنا الشيخ "عطية المرعز"، والشاعر "علي محمود طه"[158] بمرثيتين من بواكير شعره، لكنهما بفن الرثاء أقمن من مراثيه السابقة؛ إذ يبدو شاعرنا فيهما مكلومًا مفؤودًا، كما نجد فيهما التوجع والبكاء، والدعوة إلى أخذ العبرة من الموت والعمل ليوم الحساب، وعدم الاغترار بنعيم الدنيا اللألاء، والرضا بقضاء الله وقدره، وهي أمور خلت منها مراثيه السابقة، يقول الكيلاني في رثاء الشيخ عطية المرعز[159]:

جَـلَّ الْمُصَـابُ فَخَـانَنِي الإِرْثَـاءُ وَكَـــذَا يُـــرَاعُ لِفَقْـــدِكَ الْبُلَغَـــاء

وَبِكُـلِّ قَلْـبٍ خَطْـرَةٌ جَيَّاشَـةٌ وَلَـــهُ مِـــنَ الْحُـــزْنِ الْعَمِيـــقِ رِدَاءُ

فَـإِذَا أَتَيْـتَ إِلَى الْمَنَـابِرِ قُـلْ لَهَـا قَـدْ غَـابَ نَجْمُـكِ وَاحْتَـوَاهُ فَنَـاءُ

قَدْ غَابَ نَجْمُـكِ عَنْـوَةً وَبِرُغْمِنَـا فَطَـوَى النُّفُـوسَ تَحَسُّـرٌ وَشَـقَاء

بِالأَمْسِ كَانَ عَلَى الْفِرَاشِ مُوِدِّعًـا وَعَـــلَى الْجَبِـــينِ بَشَاشَـــةٌ وَبَهَـــاءُ

وَيَقُـولُ إِيتُـوا بِالْكِتَـابِ وَرَتِّلُـوا آيَاتِـــهِ الْكُـــبْرَى فَفِيـــهِ شِـــفَاءُ

أَبُنَيَّتِـــي لا تَجْزَعِـــي فَجَمِيعُنَـــا عِنْـــدَ الرُّمُـــوسِ تَشَـــابُهٌ وَسَـــوَاءُ

أَبُنَيَّتِـــي فَلْتُؤْمِنُـــوا بِقَضَـــائِهِ إِنَّ الْمَنِيَّـــةَ فِي الْعِبَـــادِ قَضَـــاءُ

---

(158)-ولد علي محمود طه سنة 1902 ببلدة المنصورة المطلة على فرع دمياط، وتخرج في مدرسة الفنون التطبيقية سنة 1924، وعين بهندسة المباني ببلدته وقد صدر له خمسة دواوين هى: "الملاح التائه"، و"ليالي الملاح التائه"، و"زهر وخمر"، و"الشوق العائد"، و"شروق وغروب"، وعين في سنة 1949 وكيلًا لدار الكتب، لكن القدر لم يمهله فمات في السنة نفسها. راجع، د. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف،ط7، ص161.

(159)-لم أقف لهذا الشيخ على ترجمة.

اخْشُوا الْحِسَابَ وَمَا يَمُوجُ بِيَوْمِهِ فَهْنَاكَ بَيْنَ الوَافِدِينَ دُعَاءُ
وَتَضَرُّعٌ للهِ خَوْفَ عَذَابِهِ وَتَرَى الْوُجُوهَ يَخُفُّهُنَّ عَنَاءُ
يَومٌ تَفِرُّ الأُمُّ مِنْ وَلَدٍ لَهَا وَتَشِتُّ فِيهِ النُّخْبَةُ الصَّحْبَاءُ[160]

ويقول في رثاء الشاعر علي محمود طه:

آخِرُ الْعَهْدِ دَمْعَةٌ عَصْمَاءُ وَمِنَ الدَّمْعِ يَا عَلِيُّ رِثَاءُ
لَسْتُ أَدْرِي لِمَنْ أَسُوقُ عَزَاءً عَمَّ فِينَا الأَسَى فَتَاهَ الْعَزَاءُ
هَالَ ذَا الرُّزْءُ نِيلَنَا فَتَشَكَّى أَنْتَ صَخْرٌ وَنِيلُنَا الْخَنْسَاءُ
إِيهِ يَا نِيلُ مَا رُزِئْتَ ذُبَالا بَلْ هِلالا بِنَعْيِهِ قَدْ جَاءُوا
كَمْ تَغَنَّى بِمَائِكَ الْعَذْبِ وَجْدًا كَمْ أَشَادَتْ يَرَاعُهُ الشَّمَّاءُ
شَاعِرَ الْبَرِّ وَالْبِحَارِ سَلامًا يَنْدُبُ الْبَرُّ حَظَّهُ وَالْمَاءُ
شَاعِرَ الطُّهْرِ وَالْعَفَافِ وَدَاعًا كَانَ لِلنِّيلِ مِنْ حِمَاكَ الْتِجَاءُ
يَا حَرِيًّا بِجَنَّةِ الْخُلْدِ هَيَا جَنَّةُ الْخُلْدِ مَرْتَعٌ وَبَقَاءُ[161]

ولم يرث شاعرنا من أسرته سوى أخيه "أمين"، لكن مرثيته هنا جاءت باردة العاطفة-رغم صلة القربى بين الشاعر والمرثي-خلا بيتين، قصيرة النفس؛ فلم تتجاوز اثني عشر بيتًا، ولا تخرج في معانيها عن الزهادة في متاع الحياة الدنيا، والرضا بقضاء الله الذي كتب الفناء على كل ابن أنثى:

قَالُوا "أَمِينُ" عَلَى الأَعْوَادِ مَحْمُولَ مُسَافِرٌ بَغْتَةً وَالرَّكْبُ مَذْهُولُ
غَامَتْ مَجَالِسُهُ وَانْفَضَّ سَامِرُهُ وَلَمْ يَدُمْ فِيهِ تَرْنِيمٌ وَتَرْتِيلُ
قَدْ عَاشَ لِلْحُبِّ وَالآمَالِ مُنْتَشِيًا وَهَلْ يُفِيدُ غَدَاةَ الْمَوْتِ مَأْمُولُ؟
دَعِ الْحَيَاةَ وَلا تُخْدَعْ بِبَهْرَجِهَا وَلا يَغُرَّنْكَ تَقْصِيرٌ وَتَطْوِيلُ

(160)-ديوان "نحو العلا": 38،39.

(161)-السابق: 47،48.

نِهَايَــةٌ كُتِبَــتْ مِــنْ قَبْــلِ مَوْلِــدِهِ وَلَــيْسَ يَشْــفَعُ فِيهَــا الْقَــالُ وَالْقِيــلُ
دَعَوْتُــهُ.. وَنُيُــوبُ الْحُــزْنِ تَنْهَشُــنِي وَاللَّيْــلُ فِي جَنَبَــاتِ الأُفْــقِ مَشْــلُولُ
وَالــدَّمْعُ تَطْفُــرُ مِــنْ عَيْنِــي سَــوَاكِبُهُ وَالْقَلْــبُ مُرْتَجِــفٌ فِي الْيَــأْسِ مَعْقُــولُ
آمَنْــتُ بِــاللهِ لا عُتْــبٌ وَلا غَضَــبٌ فَلَــيْسَ فِي لَوْحِــهِ الْمَحْفُــوظِ تَضْــلِيلُ
الْعُمْــرُ نَجْهَلُــهُ، وَالــرِّزْقُ مُسْــتَتِرٌ وَكُــلُّ مَــا فِي سِــجِلِّ الْمَــرْءِ مَجْهُــولُ[162]

ويقدم لنا نجيب الكيلاني في قصيدتيه: "الشهيد" و "حزن أم" ما يمكن تسميته بـ "المرثية النموذج"؛ فهو لا يتحدث فيهما عن شهيد بعينه، أو أم بذاتها، بل يصدق حديثه على كل شهيد قضى في سبيل دينه أو وطنه، وكل أم منيت بثكل وليدها، يقول الكيلاني في مرثية "الشهيد"[163]:

رَأَيْتُــهُ شَــاكِيَ الأَرْمَــاحِ مُنْــدَفِعًا لا يَرْتَجِــي غَــيْرَ نَصْرِ الْحَــقِّ آمَــالا
فَهَــانَ فِي عَيْنِــهِ الــدُّنْيَا وَمَــا وَسِــعَتْ وَرَامَ فِي مَسْرَحِ الأَبْطَــالِ إِحْــلالا
رَأَى نُفُوسًــا طَوَاهَــا الْجَــوْرُ مُجْتَرِئًــا فَــرَاحَ يَــبْرِي لَهَــا جُرْحًــا وَإِعْــلالا
وَمَــاتَ لَكِــنْ لَــهُ فِي الْخَــيْرِ أَبْنِيَــةٌ يَجْثُــو لَهَــا الــدَّهْرُ تَعْظِيمًا وَإِجْــلالا

وفي مرثية "حزن أم"[164] -وهي من أجود مراثيه- يصور الكيلاني مأساة أم اغتُضر ابنها، فباتت تبكيه لا يرقأ دمعها، ولا يعرف الهناء قلبها، وربما يكون شاعرنا قد انفعل بأم فقدتْ ولدها بالفعل، لكنه يخرج بالتجربة من دائرة الخصوص إلى دائرة العموم، فيصدق كلامه على كل أم اختطف الردى ابنًا لها، وقد أحسن شاعرنا حين ألبس الطبيعة ثياب حداد، فغدت تشاطر تلك الأم الثكلى أحزانها، وتقاسمها همومها:

ابْنَــاهُ مَــا تِلْــكَ الْحَيَــاةُ جَمِيلَــةٌ ابْنَــاهُ مَــا مِنِّــي الْفُــؤَادُ بِسَــالِي
كَانَــتْ حَيَاتُــكَ رَوْضَــةً فَوَّاحَــةً تُحْيِــي النُّفُــوسَ بِزَهْرِهَــا الْمُخْتَــالِ
مَــا لِي أَرَى تِلْــكَ الرِّيَــاضَ مُحِيلَــةً عَصَــفَتْ بِهِــنَّ عَوَاصِــفُ الإِمْحَــالِ

(162)-ديوان "مهاجر" : 46.

(163)-ديوان "نحو العلا" : 37.

(164)-السابق: 42 .

مَـا لِي أَرَى تِلْـكَ الزُّهُـورَ تَحَطَّمَـتْ مِنْ فَرْطِ مَـا لاقَـتْ مِـنَ الأَهْـوَالِ
مَـا لِي أَرَى تِلْـكَ الْغُصُـونَ تَكَسَّرَـتْ ثُـمَّ ارْتَـدَتْ-حُزْنًا- ثِيَـابَ خَبَـالِ
يَـا نَائِحـاَتِ الـدَّوْحِ كُفِّـي إِنَّـمَا هَـذَا النُّـوَاحُ يَزِيـدُ فِي إِعْـلالِي
وَلْتَصْـمُتِي فَالصَّـمْتُ أَبْلَـغُ آيَـةٍ فَاقَـتْ مَرِيـرَ النَّـوْحِ وَالأَقْـوَالِ
وَدَعِـي لِيَ الأَحْـزَانَ أَسْـتَأْثِرْ بِهَـا فَـإِلَى الشَّـقَاءِ مَرَاجِعِـي وَمَـآلِي
يَـا سَـاجِعَاتِ الْـوُرْقِ أَيْـنَ نِـدَاؤُهُ؟ وَإِذَا مَشَـى أَيْـنَ الـرُّوَاءُ الْحَـالِي
يَـا سَـاجِعَاتِ الْـوُرْقِ أَيْـنَ حَنَانُـهُ؟ وَجَمَـالُ مَسْـلَكِهِ وَحُسْـنُ الْقَـالِ
قُـولِي وَأَيْـنَ الْبِشْرُ-يَعْلُـو هَامَـهُ؟ هَـلْ شَـيَّعُوهَا سَـاعَةَ التَّرْحَـالِ؟

بقي أن أشير إلى نوع آخر من الرثاء لا يبكي فيه الكيلاني زعيمًا أو عظيمًا، إنما يبكي قيمة منتهكة، وفضيلة مضيعة[165]، ورغم تردد مثل هذا الرثاء في كثير من قصائده، إلا أنني أكتفي بنموذج واحد يمثل هذا النوع من الرثاء خير تمثيل، عنيت قصيدته "مرثية القرن الرابع عشر الهجري"[166]، بيد أن هذه القصيدة-على طرافة موضوعها-غارقة في النثرية؛ إذ يغلب عليها الأسلوب الخبري الجاف، والنبرة الخطابية الزاعقة، كما تشبه في كثير من أبياتها المسكوكات الصحفية، ومن ثم فهي أحوج إلى الرثاء من قرنه ذاك، ومن أبياتها:

أَيُّهَـا الْقَـرْنُ الَّـذِي وَلَّى وَرَاحْ أُمَّـةُ الإِسْـلامِ تُـدْمِيهَا الْجِـرَاحْ
حُـرِّمَ الْعَـدْلُ عَـلَى عَالَمِنَـا غَـيْرَ أَنَّ الظُّلْـمَ فِي النَّـاسِ يُبَـاحْ
قِـيَمُ الْحَـقِّ وَأَحْـلامُ الْهُـدَى وَتُـرَاثُ النُّـورِ تَـذْرُوهُ الرِّيَـاحْ
فَلْسَـفَاتٌ هَـائِمَاتٌ فِي الـدُّجَى تُخْطِـئُ السَّـيْرَ إِلَى دَرْبِ الصَّـبَاحْ
وَشَـبَابٌ سَـادِرٌ فِـي غَيِّـهِ وَهَـوَانٌ ضَـارِبٌ فِي كُـلِّ سَـاحْ

(165)-ـ انظر: د. جابر قميحة: شعر نجيب الكيلاني بين مقتضيات الرسالة وآفاق التطور، مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة: 2/ 440.

(166)-ديون "كيف ألقاك": 35.

وَالْقِيَـــادَاتُ التِـــي تَحْكُمُنَـــا قَـدْ تَهَـادَتْ بَـيْنَ كَاسَـاتٍ وَرَاحْ

أَصْـبَحَ الشِّـعْرُ خُنُوعًـا شَـائِنًا فَنُّنَـا الْمَقْهُـورُ لِلْبَـاغِي وِشَـاحْ

أَقْفَـرَ الْفِكْـرُ وَغَابَـتْ شَمْسُـهُ كَيْفَ يَسْمُو الْفِكْرُ فِي دُنْيَا الْوِقَـاحْ

وَكِتَـــابُ اللهِ يُـــتْلَى بَيْنَنَـــا كُـلَّ آنٍ وَالأَحَادِيـثُ الصِّـحَاحْ

تِلْـكَ يَـا قَـرْنَ الأَسَـى قِصَّـتُنَا عَثَـــرَاتٌ وَضَـــلالٌ وَجِـــرَاحْ

obeikandl.com

المبحث الرابع: الغـــزل

فن الغزل من أوائل الفنون التي برع فيها شاعرنا منذ ميعة صباه، غير أن غزليـات الصـبا تلك لم يضمها ديوانه الأول "نحو العلا"، ولم ينشرها فيما بعد، فضاعت ضمن ما ضاع من شعره، ولم يصلنا منها سوى غزلية واحدة نشرها في سيرته الذاتية، وقد نظمهـا في أول فتـاة علقهـا قلبـه، وهو في مدرسة طنطا الثانوية، والقصيدة تسبح في جو الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

قُلْـتُ وَالـرِّيمُ تِجَـاهِي قَـدْ رَنَـا
أَيَّ مَعْنًـى ذَلِـكَ الرِّيـمُ عَنَـى
أَعِتَابًـا، أَمْ هُيَامًـا، أمْ ضَـنَى
ذَاكَ سِرٌ لَمْ تُـرِدْ أَنْ يُعْلَنَـا
فَكَفَـانِي أَنْ أَرَى وَجْـهَ الْمُنَـى
وَكَفَـى الْقَلْـبَ لِقَاهَـا وَالسَّـنَا
أَيُّ غَـازٍ قَـدْ غَـزَانِي يَـا شَـبَابِي؟
أَيُّ رَامٍ قَـدْ رَمَـى خَلْـفَ النِّقَـابِ؟
خَفِـيَ الرَّامِـي بِطِيَّـاتِ الْحِجَـابِ
فَتَهَاوَيْـتُ وَقَـدْ طَـالَ عَذَابِـي
بِجِرَاحِـي، وَهُمُـومِي، وَخِضَـابِي[167]

وقد غلب على غزل الكيلاني طابع عذري عفيف، لا تخطئه عين قارئه، وكأنـه أراد لغزلـه أن يكون نظيفًا طاهرًا، بعيدًا عن اللذة الحرام؛ فهو لا يهيم بالمرأة جسدًا ومتعةً ونعيمًا، بـل يكلـف

(167)-مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، ص 68، وانظر كذلك: شعر نجيـب الكـيلاني بـين مقتضـيات الرسـالة وآفـاق التطور، مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة، ص 432.

obeikandl.com

بها روحًا ووجدًا وعذابًا، "فالمعنى هو الذي يغريه قبل المبنى، وفضائل الخلق تجذبه قبل أن تجذبه حبائل الشكل"[168]، ومن ثم فإن في غزله من ملامح العذرية[169] الشيء الكثير:

-ففي غزله شكوى الحرمان مع غلبة الهوى، فقد أقض الحب مضجع شاعرنا، وصار همه المقعد المقيم، في حين لا تحفُلُ صاحبتُهُ سهرَهُ وسهادَهُ:

نَامَ الَّـــذِي جَعَـلَ السُّـهَادَ جَزَائِـي ... وَبَقِيـتُ وَحْـدِيْ مُوجَـعَ الْأَحْنَـاءِ

النَّـــارُ تَلْفَـحُ مُهْجَتِـي وَحُشَـاشَتِي ... وَالآهُ تَغْمُـــرُ بِالـــدُّمُوعِ غِنَائِـــي

دُنْيَـــايَ حِرْمَـــانٌ وَطُـولُ تَرَقُّـبٍ ... وَمُـــرُوقُ آمَـــالٍ وَقَـبْضُ هَبَـــاءِ

قَـــدْ آذَنِي صَـــبْرِي الطَّوِيـــلُ وَلَمْ أَزَلْ ... أَشْـــدُو بِـــأَحْزَانِي وَطُـــولِ بَلائِـــي

قَـــدَّمْتُ قُرْبَـــانِي فُـــؤَادًا عَـــامِرًا ... بِالْحُـــبِّ مَشْـــحُونًا بِكُـــلِّ وَفَـــاءِ

أَلِـفَ الصُّـــدُودَ فَصَـــارَ مِـــنْ سُـــمَّارِهِ ... وَالسُّـــهْدُ أَمْسَـــى عِلَّتِـي وَدَوَائِـي[170]

-وفيه كذلك الشكوى من صد الحبيبة؛ إذ آلت حبيبته ألا تروي ظمأه، وطفقت تعلله بالوصل، وتعده وتمنيه، لكنها لا تنجزه ما وعدت:

أَهْـوَاهُ يَـا لَهْـفَ نَفْسِي..عِشْـتُ أَهْـوَاهُ ... وَقَـــدْ تَمَكَّـــنَ مِـــنْ قَلْبِـــي وَأَضْـــنَاهُ

حَدِيثُـــهُ مِـثْلُ وَقْـــعِ السِّـــحْرِ مُنْـــدَفِقًا ... وَهَمْسُـــهُ خَطَـــرَتْ فِي الـــرُّوحِ نَجْـــوَاهُ

الصَّـــدُّ دَيْـدَنُـــهُ، وَالْبُعْـــدُ شِرْعَتُـــهُ ... لَكِنَّـــهُ فِـــي دِمَـــائِي كَيْـفَ أَنْسَـــاهُ؟

مَـــدَّ السَّرَابُ ظِـــلالا فَـــوقَ أَيْكَتِـــهِ ... وَتَـــاهَ فِيـــهِ ذُهُـــولا مِثْـلَ مَـنْ تَـاهُوا

أَعْطَى الْوعُـودَ وَكَـمْ فِي الْوَعْـدِ مِـنْ مُتَـعٍ ... تُهْنِـــي الشَّـــجِيَّ وَتَشْـــفِي مِـــنْ بَلايَـــاهُ

طَـــالَ انْتِظَـــارِي وَلَـــمْ أَظْفَـــرْ بِمَرْحَمَـــةٍ ... مَتَـــى يُضِيـــءُ أَسَـــى لَيْلِـــي مُحَيَّـــاهُ؟[171]

([168])-د. محمد فتوح أحمد: الشعر الأموي، دار المعارف، الطبعة الأولى 1991، ص 158، وانظر كذلك: د. أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، ط4، ص 313.

([169])-راجع في ملامح الغزل العذري: د. صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي بالقاهرة 1986، ط1، ص 446.

([170])-ديوان "مدينة الكبائر": 60.

وينبغي ألا تروعنا تلك الظاهرة الشائعة في غزليات الكيلاني، أعني مخاطبته صاحبته بصيغة المذكر، فلا يعدو الأمر أن يكون مبالغة في العذرية التي اتسم بها غزل شاعرنا.

ـ ومن ملامح العذرية كذلك عند الكيلاني، تصوير أثر الحب في اعتلال جسده، ولا غرابة في ذلك وقد رويت أخبار عن العشاق، وما يفعل العشق بهم؛ إذ يترك جسومهم مهزولة عليلة، فقد "قيل لأعرابي من العذريين: ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح في الماء! أما تجلَّدون؟ فقال: إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها، وقيل لأعرابي: ممن أنت؟ فقال: من قوم إذا أحبوا ماتوا، فقالت جارية سمعته: عذري ورب الكعبة!"[172]، وهذا شاعرنا يهيضه العشق، ويضنيه هجر حبيبته، فيتركه-وهو النطاسي الحاذق بالعلل والأدواء-حائرًا لا يعرف كيف يأسو جراح فؤاده:

طَالَ انْتِظَارِي وَالْوقُوفُ بِبَابِهِ ... وَالْقَلْبُ مُنْفَطِرٌ عَلَى أَعْتَابِهِ

يَا لَوْعَتِي عَبْرَ السِّنِينَ وَشِقْوَتِي ... إِنْ لَمْ يُرَطِّبْ حُرْقَتِي بِرُضَابِهِ

اللَّيْلُ لِي أَرَقٌ يَطُولُ وَلَوْعَةٌ ... وَالْفَجْرُ يَعْرِفُ عَنْ مَرَارَةِ صَابِهِ

الْهَجْرُ يَنْهَشُ مُهْجَتِي وَحُشَاشَتِي ... وَلَكَمْ أُعَانِي مِنْ قَسَاوَةِ نَابِهِ

هُوَ عِلَّةٌ لا أَسْتَطِيعُ شِفَاءَهَا ... وَأَنَا بِعِلْمِ الطِّبِّ مِنْ أَرْبَابِهِ

إِنِّي أُدَاوِي جُرْحَ كُلِّ مُعَذَّبٍ ... لَكِنْ فُؤَادِيَ حِرْتُ فِي تَطْبَابِهِ[173]

ويقول كذلك:

لَيْلَى تَعَالِي، "فَقَيْس" فِي مَتَاهَتِهِ

طَالَتْ قَصَائِدُ "قَيْس" فِي صَبَابَتِهِ

الْيَأْسُ أَسْقَمَهُ، وَالْحُزْنُ أَسْكَرَهُ

عُودِي..تَعُدْ لِفَتَاكِ بَعْضُ صَحْوَتِهِ[174]

([171])-ديوان "مهاجر": 32.

([172])-ابن قتيبة: عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للثقافة "سلسلة الذخائر": 4/ 131.

([173])-ديوان "مدينة الكبائر": 84.

ورغم تلك اللوعة الحارة، وذلك الألم الواخز الذي يجنيه شاعرنا من وراء حبه، فإننا نلمح في غزله كبرياء الحب، وروح الرفض والترفع الذي لا يرضى لقلبه أن يذل أو يهون في موقف غزل:

هَلْ فَارِسُ الْحُبِّ الَّذِي لا يَنْحَنِي ... يَـرْضَى بِخَطْـوِ الـذُّلِّ فِي أَذْنَابِـهِ؟

وَإِذَا صَبَرْتُ فَلَسْتُ أَصْبِرُ خَانِعًا ... مُتَسَـوِّلًا لِلْحُـبِّ عَبْـرَ شِـعَابِهِ

لا يَلْتَقِـي حُـبٌّ وَذُلٌّ فِي دَمِـي ... هَـذَا هَـوَانٌ لَسْـتُ مِـنْ طُلابِـهِ

لا تَحْسَبَنْ تِـلْكَ الـدُّمُوعَ قَرِينَـةً ... لِلـرِّقِّ أَوْ نَقْشًـا عَلَـى أَثْوَابِـهِ[175]

على أن أهم ملامح العذرية عند شاعرنا، تبدو جلية في تردد دوال المعجم العذري في ثنايا غزلياته على نحو لافت، ويكفي للتأكد من هذه الحقيقة أن نقرأ في شعره الغَزِل أمثال تلك المفردات:" الحب-الهوى-العشق-أهيم-هيمان-ظمآن-نشوان-لهفة-منًى-اللوعة-الشوق..النوى-الهجر- الصد-الحرمان-الحنين-أعاني-أكابد-أرقب-انتظار- الليل الطويل-السهر- السهاد-أرق.. العين-الدموع-البكاء-الأنين-الشجا..." وغيرها من المفردات والدوال التي تشيع عند العذريين.

ولا ريب أن الاتكاء بشكل بارز على تلك الألفاظ العذرية، يؤكد ما سبق أن ألمحنا إليه من حرص الشاعر على طهارة غزله، وبراءته من حمأة الوصف الحسي- الذي يرضي الحيوان الرابض في دمه، ولا يشبع نهمة روحه، بل إن شاعرنا يؤكد هذه الحقيقة بصورة أخرى، حين يدعو في شعره غير مرة إلى الحب الطاهر العفيف، حب الأرواح لا الأجساد:

عَهِدْتُ الْهَـوَى كَالنُّضَـارِ الْـوَضِيءِ ... أَصِـيلِ الْمَظَاهِـرِ وَالْمَخْبَـرِ

عَهِـدْتُ الْهَـوَى نَفْحَـةً كُلَّمَـا ... تَتُـوقُ لَهَـا الـنَّفْسُ لَـمْ تَصْـبِرِ

وَتُحْيِـي صَرِيـعَ الْقُلُـوبِ إِذَا ... هَـوَتْ كَالْحُطَـامِ وَلَـمْ تُجْـبَرِ

أُرِيـدُ الْهَـوَى الطُّهْـرَ فِي قُدْسِـهِ ... أَوِ الْمَجْـدَ فِـي أُفْقِـهِ الزَّاخِـرِ

أُرِيـدُ النَّقَـاءَ عَلَـى سِـفْرِهِ ... وَأَبْـغِي الْـوَلَاءَ مَـعَ الأَسْـطُرِ

---

(174)-ديوان "عصر الشهداء": 28.

(175)-ديوان "مدينة الكبائر": 85.

أرِيـــدُ الصَّـفَاءَ عَلَـى عَهْـدِهِ يَتِيـــهُ بِرَوْنَقِـــهِ نَاظِـــرِي[176]

فتلك صورة حالمة، بالغة المثالية للحب الذي يبغيه شاعرنا، ولا يني يدعو إليه في شعره، ناعيًا على اللاهثين وراء لذات عابرة:

الْحُـبُّ نُـورٌ وَنِيـرَانٌ وَأُغْنِيَـةٌ وَلَـوْعَةٌ وَسُهَـادٌ فِـي حُمَيَّـاهُ
تَسْمُو بِـهِ الـرُّوحُ فِي آفَاقِهَا صُعُدًا وَتُهْـرَعُ السُّـحُبُ الظَّمْـأَى لِلُقْيَـاهُ
عَابُوا عَلَى "قَـيْسٍ" الْمَحْزُونِ غُصَّـتَهُ وَمَـا نَجَتْ مِنْ سْهَامِ اللَّـوْمِ "لَـيْلاهُ"
ظَنُّوا شُمُوخَ الْهَـوَى فِي لَـذَّةٍ عَـبَرَتْ وَرَاجِـفٍ عَصَـفَتْ بِـالْجِسْمِ كَفَّـاهُ
وَدَمْـــدَمَاتِ شَـــيَاطِينٍ مُـــزَمْجِرَةٍ وَمَـــاجِنٍ حَفَلَـتْ بِـالإِثْـمِ دُنْيَـاهُ
وَدَغْـدَغَـاتِ أَحَاسِـيسٍ مُعَرْبِـــدَةٍ وَعَـــابِثٍ وُصِـمَتْ بِـــالْعَارِ يُمْنَـاهُ
وَمَا دَرَوْا أَنَّ حُـبَّ الـرُّوحِ سَامِقَـةٌ غُصُونُـــهُ، وَسَـمَاءُ الْخُلْـــدِ تَرْعَـاهُ
تَمْضِي اللَّيَالِـي وَيَبْقَـى الْحُـبُّ مُؤْتَلِقًـا تَفِيضُ فِـي جَنبَـاتِ الـدَّهْرِ نُعْـمَاهُ[177]

كما يحمل على تلك النزعة الحسية الأبيقورية التي أخذت تطل برأسها في شعرنا الحديث، والتي غرقت في تصوير مفاتن الجسد، وتزيين المجون:

قَـدْ أَصْـبَحَ الْحُـبُّ فِي أَزْمَـانِنَا عَبَثًـا وَعَـاشِقُ الْجِسْـمِ قَتَّـالٌ وَمَقْتُـولُ
حُـبُّ الْمَلَـذَّاتِ رَعْشَـاتٌ وَعَـرْبَـدَةٌ وَنَـــزْوَةٌ وَغِشَـــاوَاتٌ وَتَضْلِيـــلُ
وَيَسْـتَحِيلُ رَمَـادًا فِـــي مَوَاقِـــدِهِ مَهْمَـا تَكَاثَـرَ فِيهَـا الْقَـالُ وَالْقِيـلُ
بِضَاعَةُ الْجِـنْسِ فِـي الأَسْـوَاقِ رَائِجَـةٌ وَكَـــمْ يُكَابِـــدُ فِـــي نِيرَانِهَـا الْجِيـلُ
كُونِـي "سُـعَادُ"ــ كَـمَا شِئْنَاــ مُطَهَّـرَةً وَلا يَغُـــرَّنْكِ تَلْوِيـــنٌ وَتَشْكِيـــلُ
الْخُلْـــدُ لِلـــرُّوحِ وَالأَجْسَـــادُ فَانِيَـــةٌ وَلَيْـــسَ فِـــي لَهْفَـــةِ الأَرْوَاحِ تَمْثِيـــلُ
سِـــرُّ الْمَحَبَّـــةِ بِـالإِيمَـــانِ مُـــرْتَبِطٌ قَـــدْ بَـــاحَ بِالسِّرِّــ قُـــرْآنٌ وَإِنْجِيـــلُ[178]

([176])–ديوان "أغاني الغرباء": 26.

([177])–ديوان "مهاجر": 33.

وهذا الإلحاح على تلك الصورة من الحب الطاهر العفيف لا يخلو من دلالة، فإن نجيب الكيلاني-وهو من رادة الأدب الإسلامي-كان مهتمًا الاهتمام كله بتأسيس النظرية وتأصيل المبدأ، قبل اهتمامه بوصف الحسان الغيد، وتصوير القد الأملود.

ولقائل أن يقول-وهو محق-إن هذا الشعر ليس فيه معنى جديد أو فكرة مستحدثة، وليس الكيلاني بأبي عذرة تلك المعاني، فقد سبقه إليها العذريون، وبزوه فيها، غير أن تفرد الغزل الكيلاني ينبغي أن يلتمس في منحى آخر، ففي بعض الأحيان ترحب الرؤية الغزلية لدى نجيب الكيلاني، وتتسع آفاقها وآمادها، حين يتجاوز الشكل المألوف، أو النمط المعهود في الغزل، فتخرج التجربة الغزلية على يديه من نطاق الغاية إلى نطاق الوسيلة، وتغدو "أنثاه" أو المرأة-بوجه عام-معادلًا لقضايا أخرى تشغل بال شاعرنا، فهي تارة معادل للأمة الإسلامية بكل آمالها وآلامها، وهذا ما يتجلى في قصيدته "ليلى المريضة"[179]؛ حيث يخلع شاعرنا على ليلاه ما تعانيه الشعوب الإسلامية من علل وأوصاب:

لَيْـلايَ فِـي أَرْضِ الْعِـرَاقِ تُعَانِـي ... مِـنْ هَـوْلِ مَـا تَجْـتَرُّ مِـنْ أَحْـزَانِ

لَيْـلايَ فِـي "بَغْـدَادَ" جِـدُّ مَرِيضَـةٍ ... تَشْكُو اعْتِـلالَ الـرُّوحِ وَالأَبْـدَانِ

لَيْـلايَ فِـي دُنْيَـا "الشَّـآمِ" عَلِيلَـةٌ ... تَبْكِي حُطَامَ الْمَجْـدِ فِي "الْجُـولانِ"

لَيْـلايَ فِـي الْقُـدْسِ الشَّرِيفِ أَسِيرَةٌ ... تَبْكِـي الْعَفَـافَ بِـدَمْعِهَا الْهَتَّـانِ

لَيْـلايَ تَائِهَـةُ الْمُنَـى مَحْزُونَـةٌ ... مَنْكُـودَةُ الآمَـالِ فِـي "عَمَّـانِ"

لَيْـلايَ فِـي طُـولِ الْـبِلادِ وَعَرْضِـهَا ... مَسْـخٌ مِـنَ الآلامِ وَالأَحْـزَانِ

هَـلْ مِـنْ نَطَاسِـيٍّ لِيُـبْرِئَ سُـقْمَهَا ... وَيُمِـيطَ لَـوْعَـةَ قَلْبِهَـا الْوَهْـانِ

([178])-ديوان "مدينة الكبائر": 36.

([179])-ديوان "عصر الشهداء": 66.

وهي-تارة أخرى-تصبح معادلًا للحرية المستلبة التي يحلم بها شاعرنا، ويرنو إليها، ومن ثم يصبح بحثه عن فتاته-كما في قصيدته " التي لم تظهر بعد"[180]- بحثًا عن هذه الحرية المفقودة التي يسائل عنها رياح الصبا، وعيون المها، والجلاد، والسلطان، عله يجد جوابًا:

هُنَالِكَ فِي مِهْرَجَانِ الرَّبِيع
وَتَحْتَ عَبَاءَةِ فَجْرٍ وَدِيع
تَرَاءَى خَيَالُكِ مِثْل الأَمَل
وَرَفَّتْ أَغَانِي الْهَوَى وَالْغَزَل
وَلَمَّا خَطَوْتُ إِلَى حَيْثُ كُنْتِ
فُجِعْتُ بِوَهْمٍ وَيَأْسٍ وَصَمْتِ
وَأَسْأَلُ عَنْكِ رِيَاحَ الصَّبَا
وَهَمْسَ الْوُرُودِ، وَقَطْرَ النَّدَى
وَيَخْفِقُ قَلْبِي الْمُشُوقُ أَسَى
وَيَنْدَاحُ شَجْوِيَ عَبْرَ الْمَسَا
وَأَسْأَلُ: أَيْنَ حَبِيبِي يَبِينْ؟
فَيَلْطِمُنِي فِي الْفَلاةِ السُّكُونْ
وَأَسْأَلُ عَنْكِ عُيُونَ الْمَهَا
حَنَانَيْكِ رَقَّ لِقَلْبِي الْجَوَى
وَأَسْأَلُ عَابِرَةً فِي الطَّرِيقْ
عَلَيْهَا خِمَارُ وُجُومٍ عَمِيقْ
فَتَرْنُو إِلَيَّ بِطَرْفٍ حَزِينْ
"كِلانَا يُقَاسِي أُوَارَ الْحَنِينْ"

(180)-ديوان "مهاجر": 14.

obeikandl.com

ثم يتحول شاعرنا إلى باقي الأوطان العربية، يتابع فيها البحث عن فتاته/ حريته، لكن من غير جدوى، ويخرج من رحلة البحث تلك صفر اليدين.. هنا يعود إلى شيخه-والشيخ هنا إشارة إلى الرجل المجرب الذي عركته الحياة-فيلفحه جواب شيخه بأن غزاله/ حريته لم يظهر بعد، أو لم يولد بعد، ودون ظهور تلك الحرية أو ميلادها جهاد لاغب وسير واصب:

ذَهَبْتُ لِشَيْخِيَ بَعْدَ الْعَنَاء

وَقَدْ هَدَّمَتْنِي صُنُوفُ الْبَلاء

أُسَائِلُهُ عَنْ غَزَالِي الشَّرِيد

وَمَجْدِ الْجَمَالِ وَطُهْرِ النَّشِيد

فَقَالَ: "غَزَالُكَ لَمْ يُولَدِ

عَلَيْكَ الْمَسِيرُ إِلَى الْمَوْعِدِ"

ثم هي-تارة ثالثة-معادل لهذه الحياة في تلونها وتقلبها، وإقبالها وإدبارها، كما في قصيدته "الحياة .. وامرأة"[181]، والربط بين الحياة والمرأة في العنوان ظاهر الدلالة على ما سبق:

مَازِلْتُ أَذْكُرُ يَوْمَ أَنْ أَقْبَلْتِ كَالظِّلِّ الْحَنُونْ

كَانَتْ حَيَاتِي لَفْحَةً نَارِيَّةً عَبْرَ الظُّنُونْ

لا شَيْءَ أَعْرِفُهُ سِوَى أَشْجَانِ مَاضِيَّ الْحَزِينْ

ظَمْآنُ يُغْرِقُنِي الأَسَى فِي أُمْسِيَاتٍ مِنْ أَنِينْ

وَأَتَيْتِ أَنْتِ كَأُمْنِيَهْ

رَفَّتْ كَأَقْدَسِ أُغْنِيَهْ

أَهْبَتِ أَحْلامِي الْكَسِيحَةَ فَانْتَفَضْتُ وَلَمْ أَنَمْ

طَلَّقْتُ أَيَّامَ الْوُجُومِ، وَعِفْتُ أَوْهَامَ الْقِدَمْ

وَحَسِبْتُ أَنَّ بِقَابِلِ الأَيَّامِ مَأْثُورَ النَّغَمْ

(181)-ديوان "أغاني الغرباء": 84.

لا بَأْسَ فِـي قَلْبِي وَلا مَـوْتَ الأَمَـانِي..لا أَلَــمْ

لَكِنْ رَأَيْتُكِ مُدْبِــرَهْ

وَعَلَى جَبِينِكِ مَعْـذِرَهْ

يبقى أن أشير إلى واحدة من تجارب الكيلاني المتصلة بموضوع المرأة بوجه عام، والتي يبدو فيها متأثرًا بإخوان مدرسة "أبولو"، وهي قصيدته "بائعة الحب"[182]، وقد كتبها في مومس تبكي مصيرها[183]:

أَبَـائِعَـــةَ الْحُـــبِّ لا أَشْـــتَرِي فَجُـودِي بِمَـا شِـئْتِ أَوْ قَـتِّرِي

فَمَـا شَفَّنِـي مِنْـكِ ذَوْبُ الْجَـوَى وَلا هَـاجَنِـــي نَشْـــوَةُ الشَّـــاعِرِ

وَلَـنْ أَسْتَجِيبَ لِـــوَهْجِ الشِّفَـاه إِذَا أُشْـــعِلَتْ بِهَـــوًى ثَـائِـــرِ

فَغُصْـنُكِ ذَاكَ الرَّطِيـبُ الْـوَضِيء ضَحَايَـــاهُ كُثْـــرٌ وَلَمْ تُحْصَرِـــ

وَكَيْـفَ وَأَنْـتِ كَـــرَوْضٍ مُبَـاح حَطِيـــمِ الأَزَاهِـــرِ وَالْمِزْهَـــرِ

لَئِـنْ شَـعَّ مِـــنْ ثَغْـرِكِ الْمُسْـتَهَام شُـعَاعٌ لأَظْلَـــمَ فِـــي مِحْجَـرِي

أَبَـائِعَـــةَ الْحُـــبِّ مَـــا بَيْنَنَـــا وِفَـــاقٌ وَلا جَـالَ فِي خَـاطِرِي

إِذَا كَـــانَ قَلْبِـــي رَحِيـبَ الْمَـدَى فَـــدِينِي سِـيَاجٌ لَـــهُ فَاحْـذَرِي

والحديث عن البغايا وبنات الليل من الموضوعات الشائعة عند شعراء "أبولو"، على نحو ما فعل "علي محمود طه"، و"صالح جودت"، و"محمود حسن إسماعيل"؛ إذ "كان شعراء هذا الاتجاه يجلون المرأة ويكبرونها، وكانوا يغفرون زلاتها، ويلتمسون الأعذار لآثامها، حتى ولو كانت ممن فرضت عليهن الظروف القاسية أن يحيين حياة الليل، أو يخضن خوضًا في الوحل"[184]، وهم في ذلك متأثرون بنزعة رومانتيكية عالمية "يقصد الرومانتيكيون بها إعذار الفرد فيما يرتكب من آثام، إذا دفعته شرور مجتمعه إلى ارتكابها. ومن ذلك نموذج البغي التي طهرت نفسها بحبها،

([182])-السابق: 25، وقد وقع الشاعر هنا في سناد التأسيس، كما يظهر في البيتين الأولين على سبيل المثال.

([183])-نجيب الكيلاني: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية: 140.

([184])-د. أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف-القاهرة، الطبعة الرابعة 1983م: 314.

فاستعاضت بذلك عما فقدته من جراء زلاتها، واستعادت مكانتها عند المنصفين من بني قومها. وأول من صور هذا النموذج الإنساني في الأدب هو فكتور هوجو في مسرحيته الرومانتيكية: ماريو دي لورم(1831) وفيها تحب **ماريو** البغي الفتى (ديدييه)، وتخلص له. وتحاول إنقاذه من الموت، فيدعوها باسم زوجته، وقد بلغ بهذا النموذج ذروته الفنية الاسكندر دوما الابن(1824-1895) في قصته: غادة الكاميليا(1848)، ثم في مسرحيته التي تحمل نفس الاسم (1885)"[185].

وإذا كان شعراء "أبولو" قد غلب عليهم تسويغ الخطأ، والتماس الأعذار لأمثال هؤلاء النساء المنحرفات، فإن الكيلاني لا يُعفِي تلك المرأة من وزر انحرافها، لكنه في الوقت ذاته لا يوئسها من رحمة ربها؛ ومن ثم فإنه يدعوها في ختام قصيدته إلى الإنابة والتوبة عما اقترفت من آثام، وتلك واحدة من أهم خصائص الأدب الإسلامي، إنه لا يبارك لحظة الضعف، ولا يزينها في عين الإنسان، بل يهتف به دائمًا لينهض من كبوته:

الله الله أُوبِي وَلا تَيْأَسِـــــي وَعَــنْ فَيْئِــهِ الثَّــرِّ لا تُــدْبِرِي

وَرَوِّي الثَّرَى بِـدُمُوعِ التُّقَـى فَــدَمْعُ الَّــذِي تَــابَ لَمْ يُهْــدَرِ

وَعَفِّــي عَــلَى أَثَــرٍ شَــائِنٍ وَقُــومِي إِلَى شِــلْوِهِ أَقْــبِرِي

(185)-د. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة-بيروت، الطبعة الخامسة د.ت، ص 305.

obeikandl.com

المبحث الخامس: صوفيات

تعود النزعة الصوفية في شعر نجيب الكيلاني إلى عوامل، أهمها:

أولًا -نشأته في بيئة غلب عليها الطابع الصوفي، إذ كانت "الموالد"، وحلقات الذكر، ومواكب الطرق الصوفية، والمدائح النبوية من الأشياء المألوفة في قريته، وشاعرنا يصور لنا هذا الجو الصوفي، فيقول: "أما الموالد فقد كانت متعة ثرية العطاء بالنسبة للفلاحين عمومًا، حيث كانت تقام حلقات الذكر، إذ يقفون صفوفًا مستطيلة أو مربعة أو مستديرة، ويقف المنشد ليترنم بالأمداح النبوية، ومناقب الصحابة، وكرامات الأولياء في إيقاع ينسجم مع حركات الذاكرين...ولا يقتصر الأمر على حلقات الذكر، وغناء المنشدين العذب، بل يتعداه إلى مواكب تطوف أنحاء القرية، حيث تنتصب البيارق والرايات الخاصة بمختلف الطرق الصوفية، وتضرب الطبول، ويعلو صوت الناي والأرغول، ويدقون آلات نحاسية ذات لحن مميز، ويختلط ذلك كله بزغاريد النساء على الجانبين وفوق الأسطح...كانت قريتنا تستعد استعدادًا حافلًا لمولد سيدي أحمد البدوي في طنطا، وكان مولده يستمر أكثر من أسبوعين، حيث تتعطل الدراسة في المعهد الديني، ويخرج الفلاحون-بعد جمع محصول القطن وبيعه-أفواجًا أفواجًا..حاملين معهم خيامهم وزادهم ونساءهم وأطفالهم، ثم يعيشون في الخيام التي يقيمونها في الساحة الكبيرة، أيامًا وليالي ممتعة"[186].

ثانيًا -اتصاله بجماعة الإخوان المسلمين، وهي جماعة أخذت بنيها بكثير من وسائل التربية الصوفية، واعتمدت في منهاجها التربوي كثيرًا من أوراد القوم وأذكارهم وكتبهم، وأتاحت لها رؤيتها الشمولية انفتاحًا على كافة التيارات والاتجاهات، بل إن "حسن البنا" مؤسس جماعة "الإخوان" قد تربى في أحضان الطريقة "الحصافية" الصوفية[187].

ثالثًا -إعجابه البالغ بالشاعر الإسلامي "محمد إقبال"، وقد تجلى هذا الإعجاب في كتاب ألفه نجيب الكيلاني عن "إقبال" وفلسفته بعنوان "إقبال الشاعر الثائر"، فاز بجائزة وزارة التربية والتعليم عام 1957، وقد كانت في الهند طائفة من الصوفية تسمى ***"القلندرية"*** نسبة إلى مؤسس

([186])- مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني: 1/ 9ــ10.

([187])-انظر: حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية-الزهراء للإعلام العربي 1990، ص 22.

هذا المذهب، وكان لهذه الطائفة انحرافات، كان دراويشها يحلقون رءوسهم ولحاهم وينطلقون في آفاق الأرض دون التقيد بوطن، وجاء الشاعر الفيلسوف "محمد إقبال"، وجعل من القلندري نموذجًا لفلسفته الجديدة، ونفى عنه انحرافاته وتهويماته، بحيث أصبح تجسيدًا لأفكار "إقبال" وفلسفته الإسلامية، وقد نظم الكيلاني في ذلك قصيدة بعنوان "القلندري الجديد"، تظهر فيها بصمات "محمد إقبال" وفلسفته الصوفية بوضوح[188].

ولا ريب أن أمداح الكيلاني النبوية التي سلف تناولها إنما هي إحدي تجليات تلك النزعة الصوفية في شعره؛ فالمديح النبوي، وإن كان قديمًا منذ حياة النبي ﷺ نفسه، فإنه تجلى في ديوان الشعر الصوفي فنًا بارزًا من فنون ذاك الشعر، ومع الزمن نشأ الاحتفال بالمولد النبوي، وارتبط بهذا الاحتفال ظهور فن شعري عُرف بشعر "المولديات"، وعم العالم الإسلامي كله، وإن اختلف من بلد إسلامي إلى آخر[189].

ومما يتصل بتلك النزعة الصوفية أيضًا، ذلك النبض الصوفي الواضح في عناوين كثير من قصائد الشاعر، ومن هذه العناوين على سبيل التمثيل:

في ديوان "أغاني الغرباء": عيد الهجرة 31-صوفيات40.

وفي ديوان "عصر الشهداء": في الطريق إلى يثرب29-الإسراء 43-أرض الأنبياء 44-الترحال 48-متى اللقاء 49-أبحث عن واحة 50-في رحاب المصطفى 83-في مكة 86-العطاش 89-في مقام إبراهيم 92-بكائية 103.

وفي ديوان "كيف ألقاك؟": إنه الرسول 11-الركب التائه 44-كيف ألقاك 55-أرض النبوة 58-أيها الشاردون 87.

وفي "مدينة الكبائر": الرحاب الطاهرة 5-عودة الغائبين 17-الصوم في زمن الغفلة 23-باب الريان 41-البيعة60.

---

(188)-انظر: ديوان "أغاني الغرباء"، ص 22، وكذلك: نجيب الكيلاني: إقبال الشاعر الثائر، ص 140.

(189)-انظر: د. الطاهر أحمد مكي: مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1ـ 1994، ص 326.

وفي "مهاجر": قال شيخي 8-ضراعة 10-مهاجر 30-سماء الحب 32-المصطفى 44-شعاع الروح 49-عليك السلام 52-الإمام 57-دموع في الروضة الشريفة 61-على باب الرسول 64 ـ.

وفي "أغنيات الليل الطويل": المجذوب 13-صلاة وداع 14ـ في ملكوت الله 23-غروب26.

وأدل من ذينك الملمحين الآنفين على نزعة الكيلاني الصوفية، ما نلحظه في شعره من روح إنسانية بالغة الصفاء؛ إذ يفيض قلبه طهرًا وحبًا، وتمتلئ نفسه تواضعًا لا يخالطها معه شر؛ لأنها جعلت الله غايتها في كل حركة وسكنة، وفي كل همسة ونأمة:

وَهَبْتُ لِلْحَقِّ نَفْسِي ـــ مَلأْتُ بِالصَّفْوِ كَأْسِي

للهِ صَمْتِي وَهَمْسِي ـــ وَثَوْرَتِي..وَسُكُونِي

وَحَاضِرِي وَتِلادِي

خَلَعْتُ عَنِّي غُرُورِي وَعِفْتُ كُلَّ الشُّرُورِ

هَيْهَاتَ أَنْسَى مَصِيرِي حَيَاتُنَا خَفْقُ بَرْق

أَوْ قَبْضَةٌ مِنْ رَمَاد

إِنْ ضَاقَ كَوْنِي فَقَلْبِي رِيَاضُ طُهْرٍ وَحُبِّ

نَادَوْا فَكُنْتُ المُلَبِّي لِهَمْهَمَاتِ الضَّحَايَا

فِي كُلِّ نَجْدٍ وَوَادِ[190]

وتبلغ تلك النزعة الإنسانية مدى أرحب، وأفقًا أوسع، فتحنو على الكائنات كلها صائتها وصامتها، وتختلي نفس شاعرنا إلى الطبيعة، تجاوبها وتمازجها، لكنها لا تختلي إليها نشدانًا لسلوى أو هربًا من مجتمع أو واقع يصعب التعايش معه، على نحو ما كان يفعل الرومانتيكيون[191]، بل يختلي شاعرنا إلى الطبيعة مرتئيًا فيها طبيعة عابدة خاشعة لربها، وهذا ما ينطق به التصور الإسلامي للكون: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

(190)-ديوان "أغاني الغرباء": 23.

(191)-انظر: د. سعد دعبيس: حوار مع قضايا الشعر المعاصر-دار الفكر العربي، ص 70.

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ (الإسراء- آية44:

امْلأْ قَلْبَكَ بِالنُّورِ الأَسْمَى
وَانْثُرْ صَلَوَاتِكَ حُبًّا قُدْسِيًّا
لا تَأْسِرْ عُصْفُورًا يَصْدَح
اهْدْهُدُ يَعْلَمُ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ نَبِيُّ الله
سَجَدَ الْكَوْنُ لِرَبِّ الْكَوْن
تَبْكِي الأَشْجَارُ إِذَا ظَمِئَتْ
تَتَمَايَلُ وَجْدًا
تَتَنَاوَحُ شَجْوًا وَهُيَامًا
وَجِبَالٌ تَتَعَبَّدُ فِي الْمِحْرَابِ الأَكْبَر
وَتُصَلِّي .. تَضْرَع[192]

وإذا كان الحب الإلهي لدى كثير من شعراء الصوفية قد اقترب-حينًا-من الحب الإنساني لغةً وأساليبَ ومعانيَ، كما شابته أفكار حلولية واتحادية حينًا آخر، فضلًا عما اتسم به من تعبير موحٍ رامز قد يصل إلى الغموض في حين ثالث[193]، فإن الحب الإلهي لدى شاعرنا
قد جاء ملتزمًا بالتصور الإسلامي لحقيقة الألوهية دونما شطح أو شطط، وبلغة مباشرة بريئة من الغموض والإغلاق:

فَحُبُّ اللهِ فِي قَلْبِي رَبِيعٌ تَأَلَّقَ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّفَاءِ
لِذَاتِ اللهِ قَدْ سَجَدَتْ جَبِينِي فَكَيْفَ لِغَيْرِهِ يَرْقَى انْتِمَائِي
أَرَى فِي كَنْفِهِ أَلَقَ التَّسَامِي وَأَسْبَحُ فِي بِحَارٍ مِنْ نَقَاءِ

(192)-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 23.

(193)-كالحلاج الذي اشتهر بشعره المتضمن لأفكار الحلول والاتحاد، وقد دفع ثمنها حياته، وإن كان بعض المعجبين به- فيما بعد-يدافع عنه متأولًا هذه الأفكار، انظر: د. حسن الشافعي: فصول في التصوف، دار الثقافة للنشر والتوزيع1996، ص 117، ومابعدها.

obeikandi.com

أَهِـــيمُ مُحَـــرَّرًا مِـــنْ كُـــلِّ قَيْـــدٍ يُبَـــارِكُ مَقْصِـــدِي حُلْـــوُ النِّـــدَاءِ

فَـــلا دُنْيَـــا لِتُـــوهِنَ مِـــنْ شُـــمُوخِي وَلا طَمَـــعٌ يُزَلْـــزِلُ كِبْرِيَـــائِي[194]

وقد تولد عن هذا الحب الإلهي-لدى شاعرنا-شعوران متناقضان ظاهرًا، لكنهما-عند التأمل-صنوان متكاملان، أما أولهما، فاغتباطه بالموت، وشوقه إلى لقاء ربه، لا يكرثه الفناء وانطفاء جذوة الحياة، وليس ذلك تعبيرًا عن استهانة بالموت واستخفاف بمصيبته، قدر ما هو تعبير عن يقينه الجازم في سمو الحياة الأخرى بعد الممات:

فَإِذَا طَوَى جَسَدِي الْمُغِيبُ وَطَوَّقَتْهُ يَدُ الْحُفَرْ

وَمَضَيْتُ لِلأَرْضِ الْبَعِيدَةِ لا رَفِيقَ وَلا سَمَرْ

وَغَدَوْتُ كَالْخَبَرِ الْقَدِيمِ يُذِيبُهُ مَرُّ الْعُصُرْ-

مِثْلَ الْمَلايِينِ الَّتِي رَاحَتْ وَأَغْفَلَهَا الْقَدَرْ

فَتَرَنَّمِي بِالأُغْنِيَاتْ

بُشْرَايَ أَنْ جَاءَ الْمَمَاتْ

فَأَنَا سَعِيدٌ يَا رَفِيقَةُ حِينَ أَهْبِطُ مَضْجَعِي

سَتَذُوبُ أَطْمَاعُ الْحَيَاةِ وَلَنْ تُزَمْجِرَ أَدْمُعِي

سَيَنَامُ قَلْبِيَ بَعْدَ أَنْ قَاسَى وَتَهْدَأُ أَضْلُعِي

وَحَنَانُ رُوحِي الْمُسْتَهَامُ وَذِكْرَيَاتُ تَفَجُّعِي

فَهُنَاكَ قَدْ مَاتَ الشُّعُورْ

وَتَحَلَّلَ الأَمَلُ الْجَسُورْ[195]

وأما الآخر، فشعوره الطاغي بالموت، وفَرَقُهُ الشديد من لقاء ربه، وقد أثقلته خطاياه وذنوبه، وكبلته جرائره وعيوبه، فأطلقت لسانه ضارعًا إلى ربه:

---

(194)-ديوان "مهاجر": 6.

(195)-ديوان "أغاني الغرباء": 88.

كَيْـفَ أَلْقَـاكَ لَـيْسَ عِنْـدِي بُـرَاقٌ ... أَمْتَطِيـهِ إِلَـى سَـمَاءِ الْمَعَالِـي
إِنَّ رُوحِـي فَـوْقَ الـتُّرَابِ تَهَـاوَتْ ... وَتُقَاسِـي مِـنْ لاهِـبِ الأَغْـلالِ
أَيْـنَ رَحْـبُ السَّـمَاءِ فِي مُرْتَقَاهَـا ... مِـنْ حَيَـاتِي وَضِـيقِهَا فِي الْمَجَـالِ
كَيْـفَ يَسْـمُو إِلَـى الثُّرَيَّـا جَنَـاحٌ ... حَطَّمَتْـهُ نَـوَازِل كَالْجِبَـالِ
كَيْـفَ أَلْقَـاكَ وَالْمَطَامِـعُ تُلْقِـي ... ظِلَّهَـا الْكَئِيـبَ عَبْـرَ وُجُـودِي[196]
قَـدْ عَشِـقْنَا الْمُـالَ الْـوَفِيرَ وَهِمْنَـا ... فِـي مَلَـذَّاتِ عَيْشِـنَا الْمَنْكُـودِ
كَبَلَتْنَـا اللَّـذَاتُ فِـي كُـلِّ صُـقْعٍ ... كَيْـفَ يَحْلُـو مَـعَ الإِسَـارِ نَشِيـدِي
كَيْـفَ أَلْقَـاكَ وَالْكُـؤُوسُ بِكَفِّـي ... وَرُؤَى عَالَمِـي خَلِـيطُ جُنُـونِ
إِيـهِ يَـا نَفْسُ أَنْـتِ رَمْـزُ شَقَائِـي ... وَإِسَـارِي فِي فِكْـرِكِ الْمَسْـجُونِ[197]

ويوقفنا ذاك البيت الأخير على ملمح مهم من ملامح صوفية الشاعر، وهو جلد الذات واتهام النفس التي لا تفتأ تفتل له في الذروة والغارب، وتزين له الآثام والمعاصي، فأوردته المتالف، ونغصت عليه حياته ورنقت صفوه وهناءه:

قُلْـتُ لِلـنَّفْسِ يَـا لَعِينَـةُ صَـبْرًا ... إِنَّ بَعْـدَ الْمَـمَاتِ خُلْـدًا جَمِـيلا
فَأَشَـاحَتْ بِـوَجْهِهَا ثُـمَّ قَالَـتْ ... سَرِّحِ الطَّـرْفَ فِي الْوُجُـودِ مُجِـيلا
انْظُـرِ الأَرْضَ وَالسَّـمَاءَ وَدُنْيَـا ... مِـنْ جَمَـالٍ وَمُتْعَـةٍ لَـنْ تـدولا
قُلْـتُ بَـلْ بَهْـرَجٌ خَئُـونٌ وَقِشْرٌ ... وَبَرِيـقٌ قَـدْ لا يَـدُومُ طَـوِيلا
....
لا تَظُـنَّ الأَسْـوَارَ سِـجْنًا عَتِيـدًا ... إِنَّمَا السِّـجْنُ كَـانَ مِـنْ صُـنْعِ نَفْسِي
لَوَّثَـتْ غَـايَتِي وَعَاثَـتْ فَسَـادًا ... فِي كِيَـانِي، وَوَلْوَلَـتْ يَـوْمَ عُـرْسِي
تَقْلِـبُ الْحُـزْنَ رَاحَـةً وَهَنَـاءً ... وَتُمِيـلُ الأَفْـرَاحَ أَشْـجَانَ بُـؤْسِ

(196)-ورد البيت بهذه الصورة عند الشاعر، لكنه مكسور.

(197)-ديوان "كيف ألقاك": 56.

لَسْــتُ أَدْرِي كَيْـفَ الْمَسِـيرُ إِلَهِـي إِنَّ أَعْدَى الأَعْـدَاءِ يَـا رَبُّ نَفْسِي-[198]

ولا تني تلك النفس الأمارة الملحاح تلهث وراء الشهوات، لا يشبع نهمها، ولا يهدأ جشعها، ولا ترعوي من نصح، أو تزدجر رضًا بمقسومها:

وَمَا أُبَـرِّئُ نَفْسِيَ- إِنَّ الـنَّفْسَ مِـنْ قِـدَمٍ أَمَّــارَةٌ بِــوَضِيعِ السُّــوءِ تَتَّصِــفُ[199]

لا يَسْتَقِيــمُ هَـوَاهَــا أَوْ يُهَـذِّبُهَــا فَـيْضُ النَّعِـيمِ وَلا رَوْضَاتُــهُ الأُنُـفُ

فَــإِنْ تَنَـلْ مِـنْ كُنُـوزِ الأَرْضِ بُغْيَتَهَـا تَمَــرَّدَتْ، وَمَضَــتْ لِلإِثْــمِ تَقْــتَرِفُ

وَإِنْ تَضَــاءَلَتِ الأَرْزَاقُ كَــانَ لَهَــا مِـنْ حَنْقِهَـا جَشَـعٌ فِي الْقَلْـبِ يَعْتَسِـفُ

تَعِـيشُ فِــي حَـيْرَةٍ حَــرَّى مُزَلْزِلَــةٍ وَلَـيْسَ يَرْدَعُهَـا نُصْـحٌ وَلا نَصَـفُ[200]

ولا عجب-بعد ذلك-أن نرى الكيلاني يكثر التضرع واللجوء إلى ربه، يدعوه أن يعصمه من نزوات نفسه، وأن يمحو آثامه، ويقبل توبته:

يَا إِلَـهَ الأَكْـوَانِ هَـاكَ فُـؤَادِي ضَــارِعًا تَائِبًــا حَطِـيمَ الأَمَــانِي

فَامْحُ بِالنُّورِ وَالتَّـيَقُّنِ ضَـعْفِي وَامْـلأِ الْقَلْـبَ بِالرِّضَـا وَالأَمَــانِ

نَــاءَ يَـا رَبُّ كَـاهِلِي بِالْخَطَايَـا وَكَــذَا بَــاءَ بِالضَّـيَاعِ زَمَــانِي[201]

ومن ملامح التصوف-كذلك-عند شاعرنا، زهده في الدنيا، واحتقاره لها، واستعلاؤه على نعيمها، وتحذيره من الركون إليها، أو الاغترار بمتاعها الخُلَّبِ، وبريقها اللألاء، وقد يخالط هذا الزهد ذم لاذع، وتصوير قبيح يُظهر حقيقة هذه الدنيا، أو تلك الحية الرقطاء-على حد قوله[202]- فتزداد النفوس لها بغضًا ومنها اشمئزازًا:

مَــا حَــاجَتِي لِلْمَتَــاعِ وَشَاسِــعَاتِ الضِّيــَاعِ

([198])-ديوان "أغاني الغرباء": 41،42.

([199]) هكذا ورد البيت في الديوان، وهو مكسور.

([200])-ديوان" أغنيات الليل الطويل": 15.

([201])-ديوان "أغاني الغرباء": 42.

([202])-في ديوانه أغاني الغرباء، ص33، حيث يصور هذه الدنيا أفعى تبدل كل آونة إهابا كما يقول شوقي:

هِيَ حَيَّةٌ رَقْطَاءُ ذَاتُ نُعُومَةٍ وَقَدِ انْطَلَتْ فِي حُلَّةِ الرُّهْبَانِ

إِنِّي نَشَرْتُ شِرَاعِي فِي بَحْرِ عِشْقٍ وَوَجْدِ
يَفِيضُ فِي كُلِّ نَادِ
دُنْيَاكُمُو مِثْلُ غَابِ مُرَوَّعٍ بِالذِّئَابِ
لا حُكْمَ إِلا لِنَابِ فِيهِ وَظُفْرٍ خَضِيبِ
يَخْتَالُ بَيْنَ الْعِبَادِ[203]

ويقول كذلك:

مَلآنَةٌ رُوحِي بِشَوْقٍ وَارْتِعَاشَاتٍ وَجُوعْ
لَكِنْ حَذَارِ[204]..مَا لِغَيْرِ اللهِ أَسْرَفْتُ الرُّكُوعْ
فَلْتَذْهَبِي مَغْرُورَةً..لا تَحْسَبِي أَنِّي خَنُوعْ
وَغَدًا هُنَالِكَ نَلْتَقِي فِي عَالَمٍ زَاهِي الرُّبُوعْ
الْمَوْتُ بَرْزَخُهُ الْجَمِيلْ
وَالصَّفْوُ مَعْدِنُهُ الأَصِيلْ
هَذِى الْحَيَاةُ حَقِيقَةٌ شَوْهَاءُ كَالْمَسْخِ الْقَبِيحْ
بَكْمَاءُ.. تَزْعُمُ أَنَّهَا مُنِحَتْ بَرَاعَاتِ الْفَصِيحْ
أَنَا يَا رَفِيقَةُ عِنْدَهَا حَيْرَانُ كَالطَّيْرِ الذَّبِيحْ
كَالصَّفْقَةِ الْحَمْقَاءِ بَاعُوهَا بِلا ثَمَنٍ رَبِيحْ
مَا أَرْخَصَ الْقَلْبَ الْكَبِيرْ
فِي سُوقِهَا القَاسِي الْحَقِيرْ[205]

([203])-ديوان "أغاني الغرباء": 23.

([204])-لا بد أن يقرأ هذا البيت بإشباع كسرة الراء من كلمة "حذارِ" حتى يستقيم على وزن الكامل.

([205])-السابق: 88.

obeikandi.com

وللكيلاني قصيدة لها بموضوع التصوف واشجة، عنوانها "يا بدوي"[206]، يصف فيها الكيلاني ما يحدث في مولد السيد أحمد البدوي بمدينة طنطا، في لغة شاخصة مصورة كأنها عدسة كاميرا لا تكاد تخطئ مشهدًا، أو تغادر منظرًا، وفي لحن المتدارك ذي الجلبة التي توافق جلبة الذاكرين المتمايلين مرددين: "الله الله يا بدوي"، والقصيدة-بعدُ-ممتلئة بكثير من مفردات المعجم الصوفي: كالذكر، والصاري، والسيد، والقطب، والمجاذيب، والمقصورة ... وغيرها:

بِالْبَابِ اصْطَفَّ مَجَاذِيبُ وَجِوَارَ الْقَبْرِ مَحَاسِيبُ
أَلْوَانُ الطَّيْفِ جَلابِيبُ وَالصُّحْبَةُ تُنْشِدُ فِي عِشْقِ

اللهَ اللهَ يَا بَدَوِي

"الْقُطْبُ الأَعْظَمُ" نَادَانِي وَبِجُنْحِ الظُّلْمَةِ وَافَانِي
فِي الرُّؤْيَا جَاءَ وَمَنَّانِي بِالْيُسْرِ مَعَ الْفَرَجِ الْحَقِّ

اللهَ اللهَ يَا بَدَوِي

وَشُيُوخُ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّه بِجُفُونٍ تَبْدُو مَرْخِيَّه
وَلِحَاهُمُ تَقْطِرُ حِنِّيَّه تَسْبِي قُلُوبًا فِي الرِّقِّ

اللهَ اللهَ يَا بَدَوِي

وَالسَّاحِرُ يَلْعَبُ بِالْحَيَّه يَقْتُلُهَا وَيَبْعَثُهَا حَيَّه[207]
أَوْ يَصْنَعُ مِنْهَا جِنِّيَّه سُبْحَانَ الْبَاقِي وَالْمُبْقِي

اللهَ اللهَ يَا بَدَوِي

وَالْخُمُّصُ وَالْحَلْوَى الْحَمْرَا تَبْدُو فِي حُمْرَتِهَا جَمْرًا
"نَشَّالٌ" يَخْطَفُهَا سِرًّا وَيُغَمْغِمُ مُحْمَرَّ الشِّدْقِ

اللهَ اللهَ يَا بَدَوِي

وَبَيَارِقُ تَخْطُرُ فِي الدَّرْبِ وَتَمِيلُ فَتَلْعَبُ بِالْقَلْبِ

([206])-السابق: 48.

([207])-هذا البيت مكسور.

obeikandl.com

تَتْبَعُهَـا جَمْهَـرَةُ الشَّـــعْبِ وَتُتَمْـتِمُ بِـاللَّفْظِ الْعَبِـقِ

اللهَ اللهَ يَـــا بَـــدَوِي

ولا ينسى شاعرنا-كعادته في اتخاذ المناسبة المحدودة مطية ينطلق من خلالها إلى القضايا الكبرى-أن يطل من خلال مولديته تلك على أوجاع الأمة الإسلامية وآلامها:

وَيَجِـيءُ وَيَنْصَرِـمُ الْعَـامُ فَتَـؤُوبُ وَتَرْبُـو الآثَـامُ

وَتَحُـطُّ بِقَلْبِـي الأَوْهَـامُ وَصُرَاخٌ حَـوْلِي فِي دَفْـقِ

اللهَ اللهَ يَـــا بَـــدَوِي

عُشَّـاقٌ لِلـدَّجَلِ الْمُـزْرِي وَحَيَـاةٌ مُبْهَمَـةُ السِّـحْرِ

تَكْـتَظُّ بِـأَلْوَانِ الشَّـرِّ وَتُوَلْوِلُ فِي صَـخَبِ الْحُمْـقِ

اللهَ اللهَ يَـــا بَـــدَوِي

أَقْـوَامٌ ضَـائِعَةُ الْمَعْنَـى الـذِّلَّةُ فِيهَـا لا تَفْنَـى

فَسَـدَتْ أَذْوَاقًـا أَوْ مَبْنَـى تَتَسَـابَقُ فِي هَـوَسٍ مُشْـقِ

اللهَ اللهَ يَـــا بَـــدَوِي

obeikandl.com

المبحث السادس: الشكوى

من البدهي أن كثرة النوازل والبوائق تحمل أي إنسان على الشكوى والضجر، بله أن يكون شاعرًا راهف الحس كنجيب الكيلاني، وقد تنكر له وطنه، وتنكر له زمنه وواقعه، وهل يُنْتَظَرُ من رجل سُجن في بلده، وطورد في وطنه، حتى اضطر إلى مغادرته طيلة ربع قرن من حياته، إلا أن يكون ضائقا كمدًا بالحياة والأحياء!.

الشكوى إذن أمر بديه وطبعي من شاعرنا، بل هي باب كبير في الشعر الكيلاني وهذا شيء صحيح، ولكنْ صحيح-كذلك-أن شطرًا كبيرًا من شكايته قد انصرف إلى هموم أمته الإسلامية، وقد رأينا الشاعر يتخذ كثيرًا من الفنون الشعرية التي طرقها تُكأة إلى قضايا أمته وهمومها، ولكن بقيت-بعدُ-لشاعرنا آلام وهموم ذاتية تقض مضجعه وتطلق لسانه بالشكوى؛ فهو ضائق بعصره ومخازيه، ضائق بأيامه وصروفها، ضائق بسجنه وعذاباته، ثم هو ضائق بالمشيب وقد وخطه، ينذره بدنو أجله، واقتراب حَيْنِه.

على أن ضيق الشاعر بعصره يمثل أبرز ملامح الشكوى لديه، حتى إنه ليخيل إلى قارئه أن الكيلاني لو خُيِّر ما اختار أن يولد بهذا العصر المنكود، ويكفي أن يطالع القارئ أمثال هذه الأبيات ليدرك مدى ضيق الشاعر بعصره ومخازيه:

هَـــذَا زَمَـــانٌ مُـــتْرَعٌ بِـــالْقَهْرِ وَالأَلَمِ الـــدَّفِينْ

(مهاجر: 49)

هَـــذَا زَمَـــانُ نِفَـــاقٍ لِكُـــلِّ صِـــدْقٍ يَصُـــدُّ

(مهاجر: 51)

هَذَا زَمَانُ الْغَدْرِ وَالنُّوَبِ الَّتِي غَطَّتْ رُبُوعَ الشَّرْقِ بِالأَتْرَاح

(مهاجر: 53)

هَذَا زَمَانٌ فِي الرَّدَاءَةِ غَارِقٌ مَنْ لِلْغَرِيقِ يَشُقُّ تِلْكَ الأَبْحُرَا

(مدينة الكبائر: 7)

هَذَا زَمَانُ الْقَهْرِ وَالطُّغْيَانِ قَدْ طَوَّقَتْهُ عَوَاصِفُ الأَحْزَانِ

(مدينة الكبائر: 19)

ولا يقنع الشاعر بهذا الإجمال الواضح في تلك الأبيات السالفات؛ لذا نراه يطنب ويفصل في تعداد سوءات عصره ومثالبه؛ مازجًا بين آلامه وآلام أمته، وتزداد الصورة قتامة حين تقترن شكوى شاعرنا بحيرة وسهاد:

حَيَـــاتُنَا نَـــزَوَاتٌ مُلَفَّعَـــاتٌ بِهَـــمِّ
أَيْـنَ الرِّضَـا فِي وُجُـودٍ يَشُـــوبُهُ كُـــلُّ ذَمِّ
الْعَـــدْلُ فِيـــهِ تَهَـــاوَى قَـــدْ أَشْـــبَعُوهُ بِـــرَجْمِ
فِي كُـــلِّ صُـــقْعٍ بَـــلاءٌ فَكَيْـــفَ أَهْنَـــا بِنَـــوْمِ؟
دَمٌ وَقَهْـــرٌ وَزَيْـــفٌ فِي أَرْضِ عُـــرْبٍ وَعُجْـــمِ
وَقَـــادَةُ الرَّكْـــبِ فِينَـــا مَـــا بَـــيْنَ لاهٍ وَفَـــدْمِ
قَـــدْ غَلَّلُـــوا أُمْنِيَـــاتِي فَكَيْـــفَ أَرْمِـــي بِسَـــهْمِ؟
سَـلْ عَـنْ هَـوَانِ بِـلادِي وَعَـــنْ مَلاحِـــمَ دُهْـــمِ
لَقَـــدْ هُزِمْنَـــا وَلَكِـــنْ قُبَيْـلَ زَحْـفٍ لِخَصْـمِ[208]

وأما شكوى السجن، فهي لا تقل أهمية عن شكايته عصره، وحظ الشاعر فيها من صدق المعاناة والمعايشة يوازي حظه من روعة التعبير والتصوير، وقد مر بنا كيف صور الكيلاني مشهد التعذيب في السجن تصويرًا حيًّا شاخصًا، كأنما يراه القارئ رأي العين، ويبصره بكل تفاصيله وملابساته، غير أن ظلام السجن وحلكة لياليه، والشعور بالوحشة والانفراد بين حيطان وباب موصد، قد أخذ من شكاية الشاعر حظًّا وافرًا:

كَـانَ حُلْمِـي يَـا إِلَهِـي بَاهِيًـا وَالْهَـوَى يَعْبَـقُ طهـرًا حولنـا
عُـدتُّ كَالطَّـائِرِ لَمَّـا أَنْ هَـوَى بَعْـدَ أَنْ طَـالَ جَنَاحَيْـهِ الْـوَنَى
نَحْـنُ فِي وَادِي النَّـوَى لا نَرْتَـأي غَـيْرَ آلامٍ أَهَاجَـتْ شَـجْوَنَا

(208)-ديوان "مهاجر": 21.

أَقْبَلَـــتْ فِي نَشْـــوَةٍ مَجْنُونَـــةٍ تَنْشُـــبُ الأَظْفَـــارَ فِي أَجْسَـــادِنَا
إِنَّهَـــا تَسْـــخَرُ مِـــنْ آجَالِنَـــا كَـــمْ تَمَـــادَتْ فَأَذَابَـــتْ عُمْرَنَـــا
يَـــا لقَلْـــبِ اللَّيْـــلِ فِي حُلْكَتِـــهِ يَكْـــتُمُ الآمَـــالَ فِي أَحْنَائِنَـــا
وَيُمِيـــتُ اللَّحْـــنَ فِي أَفْوَاهِنَـــا بِيَمِـــينٍ بَعْثَـــرَتْ آمَالَنَـــا
أَحَـــرَامٌ إِنْ هَفَـــتْ أَنْغَامُنَـــا وَتَهَـــادَتْ فِي تَهَاوِيـــلِ الْعَنَـــا[209]

وتطول بالشاعر محنته خلف القضبان، ويمر عليه ليل السجن بطيئًا وئيدًا، ويلوح له القمر بين أسداف الظلمة-وربما كان القمر رمزًا لمحبوبته-فيبثه شكواه في مناجاة تقطر ضيقًا وأسًى، ورغبةً في الانعتاق من هذا الغيهب الموحش، لكن عليها في الوقت عينه مسحة من صبر، وغلالة من أمل في إيذان القدر بلقيا القمر:

كَيْـــفَ أَلْقَـــاكَ يَـــا قَمَـــرْ؟ وَأُنَاجِيـــكَ فِي السَّـــحَرْ
غَيَّبَتْنِـــــي غَيَاهِـــــبٌ كُـــلُّ أَيَّامِهَـــا غِـــيَرْ
رُبَّ لَيْـــلٍ سَـــهِرْتُهُ وَمَـــعَ اللَّيْـــلِ أَنْتَظِـــرْ
يُلْهِـــبُ الْهَجْـــرُ مُهْجَتِـــي وَهَـــوَى الْقَلْـــبِ يَسْـــتَعِرْ
أَرَّقَ الْقَهْـــرُ مَضْـــجَعِي وَالأَمَـــانِيُّ تُحْتَضَرْ
وَقُيُـــودِي ثَقِيلَـــةٌ فَمَتَـــى الْقَيْـــدُ يَنْكَسِرْ
سَـــوْفَ أَبْقَـــى عَـــلَى الْوَفَـــا دُونَ يَـــأْسٍ وَلا عَثَـــرْ
إِنَّـــمَا الصَّـــبْرُ مَرْكَبِـــي وَطَرِيقِـــي إِلَى الظَّفَـــرْ
وَرِضَـــا اللهِ غَـــايَتِي لَسْـــتُ أَشْـــكُوكَ يَـــا قَـــدَرْ
وَغَـــدًا يَـــنْجَلِي الأَسَـــى ثُـــمَّ أَلْقَـــاكَ يَـــا قَمَـــرْ[210]

([209])-ديوان "أغاني الغرباء": 44،45.

([210])-ديوان "كيف ألقاك": 46.

وقد تجيء تلك الشكاية في لغة ضارعة وانية، تمتزج فيها الدموع بالدماء، حين تستبد به المحنة داخل السجن أو القفر-على حد قوله-فلا يجد سوى الله ينجيه من هذا القفر، فيضرع إليه شاكيًا رعاة طغاة، وحكامًا بغاة يكممون الأفواه، بل يخرسونها:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكْ

أَشْكُو إِلَيْكَ مَا جَرَى

فِي عَالَمٍ يَلُوكُهُ الْحَلَكْ

.....

الْحُبُّ قَدْ هَلَكْ

الصِّدْقُ قَدْ هَلَكْ

فَكَيْفَ تَمْرَحُ الزُّهُور؟؟

وَأَيْنَ يُولَدُ السَّلام؟؟

يَا أَيُّهَا الْمَلِكْ

دُمُوعُنَا تُبَلِّلُ الدَّرَكْ

دِمَاؤُنَا تُخَضِّبُ الشَّبَك

هُنَا الرُّعَاةُ يَا مَلِكْ

قَدْ أَوْصَدُوا مَسَاجِدَك

وَأَخْرَسُوا مَنَابِرَك

أَتَقْبَلُ الدُّمُوعَ؟ وَالدِّمَاءَ؟ وَالأَرَق؟

فَإِنَّهَا صَلاتُنَا

..دُعَاؤُنَا

..شَكَاتُنَا

فِي الْقَفْرِ.. وَالْوجُومِ .. وَالظَّمَأْ

لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى يَدًا تُغِيثُنَا

إلا يَدَكْ[211]

وإذا كان الشاعر قد تذرع بالأمل في سجنه، وأسعفه صبره في احتمال لياليه، فإن قواه قد خارت أمام المشيب حين لاح بعارضه، وصوح شبابه الفينان، ورغم قلة قصائده في شكوى المشيب-إذ لم تتجاوز ثلاث قصائد-إلا أن الشاعر فيها بادي الفزع شديد الحسرة على شبابه الذابل ورفاقه النازحين:

وَلَّى الشَّبَابُ وَغَابَتِ الأفْرَاحُ لَكَأَنَّ أَحْلامَ الصِّبَا أَشْبَاحُ
أَمْسَتْ لَيَالِي الأُنْسِ وَهْيَ كَلِيلَةٌ فَبَكَتْ عَلَى ذِكْرَى الْهَوَى أَرْوَاحُ
لَمْ يَبْقَ فِي الْكَأْسِ الْخَلِيِّ ثُمَالَةٌ بَلْ أَثْقَلَتْهُ أَدْمُعٌ وَنُوَاحُ
لَمْ يُخْطِعِ الْقَدَرُ الْخَفِيُّ حُشَاشَتِي فَتَكَالَبَتْ حَوْلِي مُدًى وَرِمَاحُ
صَارَ الْمَسَاءُ كَآبَةً وَمَرَارَةً وَارْتَاعَ مِنْ فَيْضِ الْعَنَاءِ صَبَاحُ
النَّايُ يَسْكُبُ شَجْوَهُ وَأَنِينَهُ وَيَفِيضُ مِنْهُ مَدْمَعٌ سَحَّاحُ
حَانَ الْوَدَاعُ أَحِبَّتِي لا تَجْزَعُوا مِنْ قَسْوَةِ الدُّنْيَا، وَحَانَ رَوَاحُ
قُدْ بُحْتُ بِالسِّرِّ- الدَّفِينِ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى بَعْضِ الشِّفَاءِ بَوَاحُ[212]

فتلك أنة مكلوم ونفثة مصدور، ينسى الشاعر في غمرتها أن ما مضى لا يعود، فيتمنى أن يحور إليه شبابه، ولكن هيهات، فلربما آب الغريب إلى أهله، أما الشباب فَصِيغَ من هجران على حد تعبيره[213]:

رُدَّا شَبَابِي وَرُدَّا عَهْدَهُ الْحَانِي إِنَّ الشَّبَابَ لَذُو عَرْشٍ وَتِيجَانِ
دَعَوْتُهُ فَتَوَلَّى دُونَمَا سَبَبٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي- عَلَيْهِ حِينَ يَنْسَانِي
....
أَضْحَى وُجُودِي بَرَاحًا لا حُدُودَ لَهُ تَدَاخَلَتْ فِيهِ أَحْدَاثِي وَأَزْمَانِي

(211)-ديوان "مهاجر": 10.

(212)-ديوان "مدينة الكبائر": 27.

(213)-السابق: 47.

سَبَحْتُ فِي رَوْضِهِ المِعْطَارِ مُنْتَشِيًا وَلِي مِنَ الشَّوْقِ إِذْ يَطْفُو جَنَاحَانِ

إِنَّ الشَّبَابَ لأَلْغَازٌ وَأُحْجِيَةٌ كِيَانُهُ صِيغَ مِنْ نُورٍ وَنِيرَانِ

....

رُدَّا شَبَابِي وَرُدَّا ثَوْرَةً هَجَعَتْ وَلَمْ تُخَلِّفْ سِوَى عَجْزِي وَتَحْنَانِي

رُدَّا شَبَابِي وَأَصْوَاتًا مُجَلْجِلَةً هَزَّتْ مَضَاجِعَ إِجحَافٍ وَطُغْيَانِ

قَدْ وَاجَهَ الظُّلْمَ فِي أَعْتَى مَعَاقِلِهِ وَانْقَضَّ بَيْنَ طَوَاغِيهِ كَبُرْكَانِ[214]

ولعل الشاعر قد أحس غضاضة في شكوى المشيب، أو أن قارئه مؤاخذه بهذا الخور وذلك الضعف، لذا نراه يتذرع بشيء من الحكمة يسوغ بها تلك الشكاية:

هَذَا الأَدِيمُ تَصَحَّرَتْ وَجَنَاتُهُ وَتَعَمَّقَتْ فِيهِ غُضُونُ زَمَانِي

لا الْوَجْهُ وَجْهِي حِينَ تُقْبِلُ نَحْوَهُ يَوْمًا..وَلا الْخَدَّانِ وَالْعَيْنَانِ

شَيْئَانِ مَا عِيبَ الْبُكَاءُ عَلَيْهِمَا فَقْدُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْخُلانِ

مَنْ طَالَ فِي دَرْبِ السِّنِينَ مَسِيرُهُ أَمْسَى أَسِيرَ السُّقْمِ وَالإِذْعَانِ[215]

بل إن شاعرنا يأبى إلا أن يشاركه قارئه مأساته، ويحس بما يحس به من لذاعة، ومن ثم فإنه يرسم صورة قاتمة لما يفعله الشيب بصاحبه، لا نكاد نطالعها حتى نأسى لحاله ونعذره أن شكا وبكى:

أَمْضِي ـ وَتَسْنُدُنِي عَصَايَ صَبُورَةً وَأَعِيشُ فِي دُنْيَايَ كَالْحَيْرَانِ

كَسَفِينَةٍ يَلْهُو بِهَا رِيحُ الأَسَى وَتَشُقُّ أَبْحُرَهَا بِلا رُبَّانِ

لَمْ يَبْقَ إِلا الدَّمْعُ أَسْكُبُ مُرَّهُ وَالرَّعْشَةُ الْخَرْقَاءُ فِي أَرْكَانِي

تَتَعَثَّرُ الْكَلِمَاتُ حِينَ أَصُوغُهَا وَيَخُونُنِي عِنْدَ الْحَدِيثِ لِسَانِي

يَتَضَاحَكُ الأَحْفَادُ مِنِّي كُلَّمَا أَرْوِي لَهُمْ عَنْ غَابِرِ الأَزْمَانِ

([214])–السابق: 70.

([215])–السابق: 47.

وَيَـرَوْنَ فِي نُصْـحِي حَـدِيثَ خُرَافَـةٍ أَوْ أَنَّـــهُ ضَرْبٌ مِـــنَ الْهَـــذَيَانِ

يَـــا لَلشَّـــيَاطِينِ الصِّـــغَارِ تَمَـــرَّدُوا هَـــزَأُوا بِأَفْكَـــارِي وَحُسْـــنِ بَيَـــانِي

قِيـلَ الْمَشِـيبُ هُـوَ الْوَقَـارُ وَحِكْمَـةٌ كُـــبْرَى تَفُـــوحُ كَعَـــاطِرِ الرَّيْحَـــانِ

أَنَـــا لا أَرَى إِلا الْقَسَـــاوَةَ وَالضَّـــنَى وَتَسَـــابُقًا فِي الْعَـــقِّ وَالْعِصْـــيَانِ

وَلَّى الشَّـبَابُ وَأُسْـدِلَتْ أَشْـعَارُهُ[216] لَمْ يَبْـقَ لِلْعَـيْشِ الطَّوِيـلِ مَعَـانِي[217]

وليست هذه-بالطبع-كل مجالات الشكوى لدى الشاعر، فهناك الشكوى من الظلم، وشكوى الذنوب والمعاصي، وشكوى الغربة، وشكوى المدنية الزاحفة على القيم والمثل النبيلة .. وغيرها مما سلفت الإشارة إليه، أو يضيق المقام عن تتبعه، غير أن أمرين مهمين تجدر الإشارة إليهما:

أولهما-أن شكوى الشاعر لم يكن مبتعثها نفسا حقودا تفرك الأحياء، وتبغض الحياة كحياة، كما أنها ليست دليلا على فساد في الطبع أو لؤم في النحيزة، ولكنها "أثر مواجهته للحياة القاسية، ودليل على كراهيته لمفاسد الحياة وسلبيات المجتمع الذي عاش فيه، وعلى طلبه لحياة مثالية تبرأ من الفساد.. فيتمكن كل فرد من أن ينال حقه في حياة إنسانية كريمة"[218].

ثانيهما-أن شاعرنا لا يشكو شكاية آيس قانط، ولكنه في شكواه مثال المؤمن الصابر المحتسب الراضي بقضاء ربه، الآمل في غد أفضل، فهو-على سبيل المثال-حين يشكو عصره المشئوم، وأيامه الداجية راضٍ بما قدره له ربه، وإن كان الشاعر لم يحالفه التوفيق حينما عبر عن رضائه بالقدر باللا مبالاة وعدم الاكتراث، وبينهما بون بعيد، وحين وصف القدر بالتغاضي والغدر، الأمر الذي لا يتفق مع إسلاميته، مثلما في قصيدته "عيد ميلاد"[219]:

تِلْـكَ أَيَّـامِي خُطُـوبٌ دَاجِيَـهْ مُـــثْقَلاتٌ بِجِـــرَاحٍ دَامِيَـــهْ

([216])- كلمة "أشعاره" هنا غير دقيقة، ولو قال أستاره لكانت أفضل.

([217])-السابق: 48،49.

([218])-عبد الباقي محمد حسين: سيد قطب حياته وأدبه، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة، ط2-1993م: 177.

([219])-ديوان "أغاني الغرباء": 73.

خِلْتُهَـا حُلْـمًا رَهِيبًـا قَـدْ سَرَى تَحْـتَ أَجْفَـانٍ رِقَـاقٍ بَاكِيَـهْ
أَخْطَـأَ التَّفْسِـيرَ قَلْبِـي وَيْحَـهُ وَتَبَـدَّتْ لِيْ الْفِجَـاجُ الْعَاتِيَـهْ
يَا جِرَاحِـي وَخُطُـوبِي الدَّاجِيَـهْ خَبِّرِينِـي.. خَبِّرِينِـي مَـا بِيَـهْ؟
قَهْقَهَـتْ ثُـمَّ رَوَتْ: الْيَـوْمُ عِيـد
لِمَ لا أَمْضِي- كَـمَا يَهْـوَى الْقَـدَرْ **لا أُبَـالِي أَتَغَـاضَى أَمْ غَـدَرْ**
فَاتِحًـا عَيْنِـي عَـلَى أَنْعُمِـهِ شَاكِرًا، وَالْخَيْرُ فِيمَنْ قَـدْ شَـكَرْ
مُغْضِيًا طَرْفِي عَـنِ الْيَـوْمِ الَّـذِي خَـانَنِي التَّوْفِيـقُ فِيـهِ وَانْحَسَرْ-
إِنَّـمَا الثَّـوْرَةُ طَبْـعٌ فِي دَمِـي مُنْـذُ أَنْ جَـالَ عَـلَى أَرْضٍ بَشَرْ-
إِنَّ مِـثْلِي لَـيْسَ يَلْقَـى أَيَّ عِيـد

وهو -كذلك- مستعصم بالصبر وراء القضبان، غيرُ عابئ بسجن ولا سجان، يستشعر الحرية في قيوده، ويرى الانطلاق في أسره، ويغمره الأمل في لقاء محبوبته، ليروي ظمأ فؤاده، ويطفئ لوعة قلبه:

حَقَـرْتُ السِّـجْنَ وَالسَّـجَّانَ وَالتَّعْـــذِيبَ وَالْعُهْـــرَا
وَلَسْـــتُ أَهَـــابُ طَاغِيَـــةً إِذَا مَـــا شَرُّهُ اسْتَشْرَـــى
لأَنَّ رِسَـــالَةَ الـــرَّحْمَنِ قَـــدْ زِدْنَـــا بِهَـــا قَـــدْرَا
فَـــلا يَـــأْسٌ وَلا أَلَمٌ بِـــرُغْمِ الْمِحْنَـــةِ الْكُـــبْرَى
....
وَإِنَّ غَـــدًا لَمَوْعِـــدُنَا لِنُطْفِـــئَ لَوْعَـــةً حَـــرَّى
وَنَبْنِـــيَ عُـــشَّ فَرْحَتِنَـــا عَـــلَى شُـــطْآنِنَا الْخَضْرَـــا
وَنَمْـــلأَهُ تَسَـــابِيحًا وَنُطْلِـــقَ حُبَّنَـــا شِـــعْرَا
وَلَـــنْ نَظْمَـــأَ أَوْ نَشْـــقَى وَلَـــنْ نَـــأْرَقَ أَوْ نَعْـــرَى

يَمُـــوتُ الـــذُّلُّ يَـــا لَـــيْلَى وَيَحْيَـــا حُبُّنَـــا الـــدَّهْرَا[220]

وقد يتشح هذا الصمود، وذلك الأمل بنبض ثوري داوي النبرة، فتتمـزق بـين كلـمات شاعرنا القيود، وتندك الأسوار، ويبصر الورود في ثنايا الأشواك، ويستبشر بالحرية في أقسى الأيام وأشدها حلكة:

أَنَـــا فِي قَـــبْرِيَ الْمَهْجُـــورِ قَـــدْ مَزَّقْـــتُ أَكْفَـــانِي
أُغَـــرِّدُ رُغْـــمَ أَغْـــلالِي عَـــلَى أَطْـــلالِ أَحْـــزَانِي
وَأَهْتِـــفُ بِالصَّـــبَاحِ الطَّلْـــقِ فِي عَـــزْمٍ وَإِيـــمَانِ
وَقَـــدْ أَصْـــبَحْتُ لا أَفْـــرَقُ مِـــنْ سَـــوْطٍ وَسَـــجَّانِ
أَنَـــا الصَّـــامِدُ فِي النَّكْبَـــاءِ تَعْرِفُنِـــي مَيَـــادِينِي
وَمِنْ شَـــوْكِ الأَسَـــى الْمَشْـــئُومِ قَـــدْ نَبَتَـــتْ رَيَـــاحِينِي
أَنَـــا الأَمَـــلُ الَّـــذِي يَخْفِـــقُ فِي أَرْضِ الْمَســـاكِينِ
لَقَـــدْ سَـــارُوا عَـــلَى أَثَـــرِي، وَقَـــدْ طَرِبُـــوا لِتَلْحِينِـــي
أَنَـــا حُـــرٌّ وَإِنْ شَـــابَتْ جَـــلالَ الْعَـــيْشِ أَسْـــوَارُ
طَرِيـــقُ الرَّاحَـــةِ الْخَرْسَـــاءِ إِفْنَـــاءٌ وَإِهْـــدَارُ
سَأَمْضِي ــ رُغْـــمَ مَـــا أَلْقَـــاهُ، وَالإِقْـــدَامُ إِصْرَارُ
سَأَمْضِي أَصْـنَعُ التَّـارِيخَ لا أَعْنُـو لِمَـنْ جَـارُوا[221]

(220)- ديوان "مهاجر": 60.

(221)-ديوان "أغاني الغرباء": 90.

obeikandl.com

المبحث السابع: اغتراب وحنين

اضطر كثير من الشعراء-تحت وطأة ظروف سياسية أو اقتصادية أو ثقافية-إلى ترك أوطانهم، وتلك ظاهرة ملحوظة عند كثير من شعراء العربية في مختلف العصور الأدبية؛ ومن ثم فقد شغلت تجربة الاغتراب والحنين مساحة واسعة في ديوان الشعر العربي بدءًا من الجاهلية وحتى عصرنا الحديث، على أن ما اضطر إليه الشعراء قد اضطر إليه كثير من الناس، بيد أن الشعراء[222] كانوا أقدر على التعبير عن تجربتهم، وتصوير مشاعرهم ومعاناتهم، حين لاذ غيرهم بالصمت والسكوت.

والغربة غربتان: مكانية ونفسية، وبعض النقاد يفرق بينهما في الاصطلاح، فيجعل مصطلح "الغربة" خاصًا بمغادرة الوطن طوعًا أو كرهًا لأسباب سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، في حين يخلص مصطلح "الاغتراب" للغربة عن الذات، أو الغربة عن المجتمع مع الوجود فيه[223].

ومهما يكن من أمر، فإن شاعرنا قد عانى الغربتين كلتيهما، إلا أن شعوره بالغربة النفسية كان أكثر طغيانًا، وأشد إيلامًا، فهو يرى أن" الغربة واقع نفسي مرير، وأكثر الناس إحساسًا بها هم الفنانون وحملة المبادئ، ومن ثم يزداد الشعور بالغربة كلما تطرفت المبادئ أو ازدادت حساسية الفنان، وإن صح اعتباري واقعًا تحت وطأة الحالين، فإن هناك عاملًا ثالثًا لا يمكن إغفاله، إذ إن له أعمق الأثر في كل ما كتبت من شعر ونثر، ألا وهو بقائي في السجون لمدة طويلة، وأنا في أعنف سنوات عمري حماسة وانفعالًا وطاقة"[224].

أحس الكيلاني بمرارة هذه الغربة، وتجرع صابها وهو يقبع خلف جدران السجن، كما ذاق بأساءها وهو يحيا بين أناس يختلفون عنه في التفكير والسلوك، ويواجه قساوة الزمن وعبوسة الواقع، ومن هنا وجدناه ضائقًا برمًا يشكو غربته، وينوء كاهله بتهاويل السنين:

([222])-لا يستأثر الشعراء وحدهم بتناول تجربة الاغتراب والحنين، فللنثر نصيب من الاهتمام بتلك التجربة، وقد تجلى ذلك في أدبنا العربي القديم من خلال الكتب أو الفصول التي أفردت لهذا الموضوع، ومنها: "الحنين إلى الوطن" لمحمد بن سهل بن المرزبان، و"الحنين إلى الأوطان" للقاضي الشريف أبي طاهر الحلبي، ورسائل الجاحظ... وغيرها.

([223])-انظر: د.عبده بدوي: قضايا حول الشعر-الهيئة المصرية العامة للكتاب1992، جـ1/ 59.

([224])-مقدمة ديوان "أغاني الغرباء": 7.

وَالْيَوْمَ قَدْ جَارَ الزَّمَانُ فَصِرْتُ ضِمْنَ التَّائِهِينْ

فِي غُرْبَتِي أَحْسُو الأَسَى مُتَرَبِّصًا بَرِمَ الْجَبِينْ

مَا أَثْقَلَ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ عَلَى جُفُونِ النَّازِحِينْ

الْحَامِلِينَ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ تَهَاوِيلَ السِّنِينْ

هَلْ تَعْلَمِينْ ؟

إِنَّ الْحَيَاةَ عَلَى الْغَرِيبِ أَشَقُّ مِنْ هَوْلِ الْمَمَاتْ

مَفْجُوعَةُ النَّجْوَى.. مُعَذَّبَةُ الْخَوَاطِرِ وَالسِّمَاتْ

وَشُرُوقُهَا مِثْلُ الْغُرُوبِ، وَشَدْوُهَا لَحْنُ النُّعَاةْ

فَهِيَ الْفَرَاغُ الْمُدْلَهِمُّ وَمَدْفَنٌ لِلأُمْنِيَاتْ

وَبِلا خَدِينْ[225]

بيد أن الشاعر-على عادته-لا يحب، بل لا ينتظر أن يستشعر قارئه من شكايته نبرة اليأس، أو يشتم منها رائحة الضعف؛ لذا يعلن ثورته على هذه الغربة، واستعلاءه على تلك العزلة، وإن كانت حياة العزلة والانفراد تزيد الهم، وتستجيش الفكر، وتؤجج الخيال، كما يقول الجاحظ: "وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يُسمع"[226]، وتمتزج هذه الثورة لدى شاعرنا بنبرة إنسانية تفيض حبًا على الناس والأكوان:

أَنَا لَسْتُ كَالرُّهْبَانِ أَحْيَا فِي صَوَامِعِ عُزْلَتِي

بَلْ أَعْشَقُ الدُّنْيَا الْكَبِيرَةَ لا أَدِينُ بِغُرْبَتِي

النَّاسُ..وَالأَكْوَانُ..وَالْحُبُّ الرَّحِيبُ..شَرِيعَتِي

هَلْ تَعْجَبِينَ إِذَا صَرَخْتُ بِشَكْوَتِي مِنْ غُرْبَتِي

([225])-السابق : 79.

([226])-الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الأسرة 2004م: 6/ 250.

هَــلْ تَعْجَبِــينْ؟

أَنَــا لَسْــتُ أَرْضَى أَنْ أَعِــيشَ بِشَــاطِئِ الــدُّنْيَا غَرِيــبْ

فِي مَعْقِــلِ الصَّــمْتِ الْكَئِيــبِ عَــلَى ثَــرَى وَادٍ رَهِيــبْ

الْحُــزْنُ أُغْنِيَتِــي وَأَحْلامِــي يُوَشِّــيهَا الشُّــحُوبْ

أَنَا لَسْــتُ أَرْضَى أَنْ أَكُــونَ صَــدًى هَــزِيلا فِي الــدُّرُوبْ

مِثْــلَ السَّــجِينْ[227]

والواقع أن شعور الكيلاني بمرارة السجن كان شعورًا طاغيًا، ومن ثم فلا بـدع أن تسـتقطب تجربة السجن كثيرًا من مظاهر الحنين لدى الشاعر؛ فالسجن قد حرمه من حريته، وفرق بينه وبـين أهله وقريته ومحبوبته، ولم يجد الكيلاني عزاءً أو سلوى إلا في قيثـارة الشـعر يعـزف عليهـا حنينـه، وينفث فيها مكبوت صدره ولا بد للمصدور أن ينفث.

وأول مظاهر هذا الحنين حنين الشاعر إلى حريته، وهو يحيا وحيدًا بين جـدران السـجن، وتلفـه لياليه الحنادس، ويزداد الشعور بالوحشة والانفراد حين يُنزع الشاعر من بـين رفاقـه، أو يُنزَعـون هم عنه، ويتم ترحيلهم إلى حيث لا يدري، لكنه يتوقع أن يمروا بربـى النيـل، ويشـاهدوا نخيلـه الباسق، وورودِه اليانعات، غير أنه لا يرى هذه الورود سوى حسك وأشواك، ومن ثم فإنه يطلب إلى رفاقه أن يُحَيُّوا لدى مرورهم النخيل، وأن ينزعوا عن حافتي النيل هذه الورود[228] الخالبات، إذ كيف يُستمتع برؤيتها والحرية مستلبة والكرامة مهدورة ؟!!:

يَــا رِفَــاقِي وَقَــدْ رَحَلْــتُمْ بَعِيــدًا وَتَــرَكْتُمْ مَنَــازِلا وَنَــزِيلا

إِنْ رَأَيْــتُمْ مَــوَارِدَ النِّيــلِ فَاضَــتْ بِالصّــبَا الْخُلْــوِ وَالنَّسِــيمِ بَلِــيلا

وَسَبَى رَكْبَكُمْ تَوَاثُبُ مَـوْجِ النِّيـلِ يَهْفُــو وَيَنْشُــدُ التَّقْبِــيلا

هُــوَ جَــاثٍ يُقَبِّــلُ الأَرْضَ لَكِــنْ هِــيَ تَسْــمُو فَلا تَخَــافُ دَخِــيلا

([227])-ديوان "أغاني الغرباء": 79.

([228])-ربما يكون الورد هنا رمزًا للحكام المستبدين، ولا سيما إذا كان الشاعر يَعْنِي بالـورد هنا ما يعـرف بــ **"ورد النيـل"** وهو نبت سيء رديء.

فَانْزَعُوا الْوَرْدَ عَنْ شَـوَاطِئِهِ الـسُّ م ودِ وَخَلُّـوهُ عَـاطِلا أَوْ مُحِـيلا

إِنَّـمَا الْخِصْـبُ أَنْ تَـرَى الأَرْضَ سَـلامًا وَرَحْمَـةً وَعُـدُولا

لَـوْ سَرَى الْحَـقُّ فِي رُبَاهَـا لَعَـزَّتْ بَلْقَعًا مُجْدِبًا وَجَـادَتْ سُـهُولا[229]

كما يحن إلى قريته" شرشابة" التي كان خيالها يتراءى له في كل حين، يحـن إلى حاراتهـا وبيوتهـا، ويحن إلى ريفها بأزهاره وأثماره وأبقـاره وحملانـه، كـما يحـن إلى الطنبـور يعـانق أرضـها فيغمرهـا بالخيرات:

أَنَـا الْمُشْـتَاقُ لِلأَنْسَـامِ وَالأَنْغَـامِ وَالْعِطْـرِ

إِلَى" شِرْشَابَةَ" الْخَضْرَاءِ ذَاتِ الْحُـبِّ وَالسِّـحْرِ

إِلَى حَارَاتِهَـا السَّـمْحَاءِ أَوْ أَبْيَاتِهَـا السُّـمْرِ

عَشِقْتُ حَنَانَهَا الْفَيَّـاضَ رُغْـمَ الْجَـدْبِ وَالْفَقْـرِ

نُـدَاعِبُ بَاسِـمَ الأَزْهَـارِ وَالأَثْـمَارِ وَالنَّـوْرِ

وَأَسْـكَرَنَا الْهَـوَى الصَّـافِي بِـلا كَـأْسٍ وَلا خَمْـرِ

نُسَابِقُ فِي ظِلالِ "التُّوتِ" ظَبْيَـاتِ الْهَـوَى الثَّـرِّ

.....

أَنَـا الْمُشْتَاقُ يَا "شِرْشَابُ" يَا أُنْشُودَةَ الطُّهْـرِ

وَيَـا ذَهَبِيَّةَ الآصَالِ يَـا وَضَّـاءَةِ النَّحْرِ

أَسَرْتِ فُـؤَادِيَ الْمَحْـزُونَ رُغْـمَ قَسَـاوَةِ الـدَّهْرِ

أَجَـلْ أَشْـتَاقُ لِلْحُمْـلانِ وَالأَبْقَـارِ والنَّهْـرِ

هُنَـاكَ نَسُـوقُهَا لسْـنَا نَخَـافُ مَـرَارَةَ الْقَهْـرِ

وَنَرْضَـعُهَا إِذَا جُعْنَـا، فَتَمْنَحُنَـا بِـلا زَجْـرِ

([229])–ديوان "أغاني الغرباء": 55.

obeikandl.com

أَجَـلْ أَشْـتَاقُ لِلطُّنْبُـورِ حِـينَ يَفِـيضُ بِـالْخَيْرِ

وَحَيْثُ الْكَـدْحُ وَالإِصْرَارُ فِي دُنْيَـا مِـنَ الصَّـبْرِ

أُرَوِّي الأَرْضَ مِنْ عَرَقِـي وَأَجْنِـي نَابِـتَ التِّـبْرِ

وَأَعْلَـمُ أَنَّ أَرْزَاقِـي أُفَجِّرُهَـا مِـنَ الصَّـخْرِ[230]

وفراق الأهل غربة طالما أمضت كثيرًا من الشعراء، وهذا شاعرنا يتذكر أهله عند كـل مناسبة تلم به وهو قابع خلف القضبان، فتؤرقه الـذكرى، وتجـدد مواجعـه، ويلتـاع قلبـه لفـراق أهلـه، فيتناول قيثارته يشدو عليها حنينه، لكنه في الوقت عينه ينفى عنه مظنة السخط أو الضـيق بقضـاء الله، وما ذاك إلا لأنه حريص دائمًا على أن يبدو متماسكًا قويًا أمام قارئه:

يَا عِيدُ خَـبِّرْ عَـنْ صِـحَابٍ عَـاقَنِي عَـنْهُمْ تَـرَبُّصُ هَـذِهِ الْقُضْـبَانِ

خَبِّرْ عَنِ الأَهْـلِ الْكِـرَامِ وَمَـا بِهِـمْ وَعَـنِ الـدِّيَارِ الـذَّاكِرَاتِ حَنَـانِي

خَـبِّرْ عَـنِ الْبَيْـتِ الَّـذِي هِمْنَـا بِـهِ حِينًـا، وَشِـمْنَا الْحُـبَّ فِي الأَرْكَـانِ

وَغَـدَاةَ إِقْبَـالِ الشَّـبَابِ وَشَـدْوِهِ بِجَلائِـلِ الأَلْحَـانِ وَالتَّحْنَـانِ

أَذْعَنْـتُ لِلـرَّحْمَنِ إِنْ قَـدَرٌ جَـرَى فَـالْخَيْرُ كُـلُّ الْخَـيْرِ فِي الإِذْعَـانِ

أَنَـا فِي رِحَـابِ اللهِ أَدْرُجُ رَاضِـيًا تَهْمِـي عَـلَيَّ سَـحَائِبُ الْغُفْـرَانِ

صَادٍ سَرَى الظَّمَأُ الأَلِـيمُ بِأَضْـلُعِي فَمَـلأْتُ بِالْحُـبِّ الأَصِـيلِ دِنَـانِي

قَالُوا انْتَشَى سُكْرًا فَقُلْـتُ حَنَـانَكُمْ لَـوْ كَـانَ يُطْلَـقُ لِلْمَلُـومِ يَـدَانِ[231]

كما يُطِيفُ به خيال حبيبته، فيطامن من لوعته، ويزيده أمـلا في انقشـاع ظلمـة السـجن، ولقـاء حبيبته ليطفئ لوعة فؤاده، ويَبِلَّ صداه:

أَنَـا لَمْ أَنْـسَ نَجْوَانَـا وَلا عَهْـدًا لَنَـا قَـرَّا

شُـعَاعٌ أَنْـتِ فِي قَلْبِـي يُوَاكِـبُ زَحْفَنَـا الْحُـرَّا

([230])–ديوان "أغاني الغرباء" : 71

([231])–السابق: 32ـ33.

وَأُغْنِيَـــةٌ عَـــلَى شَـــفَتِي صَـــدَاهَا يُمْطِـــرُ الْبِشْرَـــا

....

سَـــلامٌ كُلَّـــمَا خَطَـــرَتْ نَسَـــائِمُ تَلْـــثِمُ الزَّهْـــرَا

سَـــلامٌ كُلَّـــمَا هَطَلَـــتْ سَـــحَائِبُ تُنْبِـــتُ الْخَـــيْرَا

وَإِنَّ غَـــــدًا لَمَوْعِـــــدُنَا لِنُطْفِـــئَ لَوْعَـــةً حَـــرَّى

وَنَبْنِـــيَ عُـــشَّ فَرْحَتِنَـــا عَـــلَى شُـــطْآنِنَا الخَضْرَـــا

وَنَمْـــــلأَهُ تَسَـــــابِيحًا وَنُطْلِـــقَ حُبَّنَـــا شِـــعْرًا

وَلَـــنْ نَظْمَـــأَ أَوْ نَشْـــقَى وَلَـــنْ نَـــأْرَقَ أَوْ نَعْـــرَى

يَمُـــوتُ الـــذُّلُّ يَـــا لَـــيْلَى وَيَحْيَـــى حُبُّنَـــا الـــدَّهْرَا[232]

وفي قصيدة "أغاني الغرباء"[233]-وهي القصيدة التي سمى بها الكيلاني ديوانه الثاني، وفيه جمع أكثر القصائد التي نظمها في السجن-يجمع الشاعر بين هاتيك المجالي؛ فيضم حنينه إلى قريته بجانب حنينه إلى أهله وحبيبته:

قَـدْ طَـالَ تَرْحَـالِي فَهَـلْ لِمُسَـافِرٍ يَوْمًـا إِيـابْ؟؟

أَتَرَى أَعُودُ لِقَرْيَتِـي، وَتَعُـودُ أَحْـلامُ الشَّـبَابْ؟؟

وَأَرَى أَبِي وَالْحَـامِلِينَ فُؤُوسَـهُمْ عَـبْرَ الشِّـعَابْ

الْعَائِـدِينَ مِـنَ الْحُقُـولِ يَلُفُّهُـمْ لَيْـلُ السَّرَـابْ

الْكَـــــادِحِينْ

هُـمْ يَـا حَبِيبَـةُ أَهْلُنَـا فِي ظِلِّهِـمْ ذُقْنَـا الْحَيَـاهْ

حَيْـثُ الأَوِزُّ جِوَارَنَـا يَخْطُـو وَتَصْـطَرِعُ الشِّـيَاهْ

كُـلٌّ يَخُـطُّ عَـلَى الثَّـرَى حَقْـلا بِأَوْسَـطِهِ قَنَـاهْ

---

(232)-ديوان "مهاجر": 59.

(233)-ديوان " أغاني الغرباء": 78.

يَمْضِي ـ عَـلَى سُـنَنِ الْجُـدُودِ مُقَلِّـدًا فِيهَـا أَبَـاهْ

يَـــا لَلْحَنِـــينْ!!

.....

أَتَرَى أَعُودُ إِلَيْكِ يَـا سَـمْرَاءُ نَمْـرَحُ مِـنْ جَدِيـدْ؟

مُتَرَنِّمِـــينَ بِلَحْنِنَـــا الْهَـــانِي وَمَاضِـــينَا السَّـــعِيدْ

وَنَعُـودُ لِلْكَـأْسِ الْحَـلالِ وَنَشْـوَةِ الْحُـبِّ الْفَرِيـدْ

مُتَحَـرِّرَيْنِ مِـنَ الأَسَـى وَالْحُـزْنِ وَالأَلَمِ الْعَتِيـدْ؟

هَـلْ تَضْرَـعِينْ؟

هذا هو حنين السجناء أو "أغاني الغرباء" كما يسميها الشاعر، وهي كلها أنات وزفرات ارتبطت بتجربة السجن الأليمة الوقع على الشاعر، غير أن لديه مظاهر أخرى للحنين ترتبط بمظاهر شكواه؛ فضيق الشاعر بعصره أو زمانه يحدوه إلى الارتداد للوراء والحنين إلى عصر الأمة الإسلامية الزاهي، وماضيها المجيد، يوم كانت تعتصم بكتاب ربها، وتستهديه في سيرها نحو الفضائل والمعالي:

سَـــلامًا أَيُّهَـــا الطَّلَـــلُ الْجَلِيـــلُ سَـــلامًا أَيُّهَـــا الْمَـــاضِي الأَصِـــيلُ

عَشِقْتُكَ يَا شَذَى الأَحْبَابِ عِشْقًا تَغَلْغَـــلَ فِي الْجَـــوَانِحِ لا يَـــزُولُ

عَشِـقْتُ النُّـورَ وَالْحُـبَّ الْمُصَـفّى وَتَارِيخًـــا بِـــهِ مَجْـــدٌ أَثِيـــلُ

وَأَبْطَـالا عَـلَى الأَعْـدَاءِ ثَـارُوا وَأَقْـــمَارًا تَغَشَّـــاهَا أُفُـــولُ

مَبَـادِئُ أُمَّـةٍ سَـادَتْ وَشَـادَتْ هِـيَ الإِيـمَانُ وَالْخُلُـقُ الْجَمِيـلُ

صَـحَائِفُ عِـزَّةٍ فِي كُـلِّ صُـقْعٍ وَنَاكِرُهَـا هُـوَ الْفَـدْمُ الْجَهُـولُ

سُـيُوفٌ أَنْبَتَـتْ عَصْرًـا مَجِيـدًا وَأَقْـلامٌ مَـعَ الْجُـلَّى تَصُـولُ

تَرَعْرَعَـتِ الْفَضَـائِلُ فِي حِمَاهَـا وَعَـمَّ الْـبِرُّ وَالْخَـيْرُ الْجَزِيـلُ

كِتَـابُ اللهِ كَـانَ لَهُـمْ دَلِـيلا وَلَـيْسَ لِشَرْـعِهِ فِـيهِمْ بَـدِيلُ

طَوَى كِسْرَى بِسَاطَ الْمَجْدِ قَهْرًا وَوَلَّى قَيْصَرٌ وَهْوَ الذَّلِيلُ

وَخَارَ الْكُفْرُ وَانْفَكَّتْ عُرَاهُ وَأَمْسَى مُلْكُهُ وَهْوَ الطُّلُولُ[234]

على أن الشاعر لم يكن موفقًا حين وصف ذلك المجد الأثيل بالطلل، والطلل هو ما بقي شاخصًا من آثار الديار، فالكلمة تحمل ظلال الفناء والخراب، ثم إن التناقض واضح حين يتكئ الشاعر على الكلمة عينها وفي القصيدة ذاتها في وصف آثار الكفر الداثرة، لكنه على أية حال مولع بهذا الوصف كلما حن إلى الماضي، والغالب أن يمتزج هذا الحنين ببكاءٍ مبعثه الشعور الحاد بالمفارقة الأليمة بين وضاءة الماضي ونصاعته بإزاء قتامة الحاضر وجهامته، كما في قصيدته"بكائية"[235] فهي حنين ورثاء في آنٍ معًا:

أَبْكِي عَلَى سَالِفِ الآثَامِ وَالْخَطَلِ أَيُبْرِئُ الدّمْعُ مَا اسْتَشْرَى مِنَ الْعِلَلِ

أَبْكِي وَيَنْشُدُ قَلْبِي مَا يُطَالِعُهُ مِنَ الْحَنِينِ وَذِكْرَى السَّادَةِ الأُوُلِ

أَبْكِي أُفُولَ نُجُومِ الْحَقِّ إِذْ صُرِعُوا لَعَلَّ دَمْعِي يُحْيِي بِذْرَةَ الأَمَلِ

أَبْكِي رَبِيعَ حَيَاةٍ جَلَّ بَارِئُهَا قَدْ صَاغَهَا الْعَسْفُ أَشْلاءً مِنَ الْوَجَلِ

هَذِي تَحِيّاَتُ أَهْلِ الْبَيْتِ أَسْكُبُهَا دَمْعًا وَأَنْفُثُ فِي تَهْطَالِهَا خَجَلِي

وَكَيْفَ تُجْزِي دُمُوعِي وَهْيَ عَابِرَةٌ لا يَنْفَعُ الدَّمْعُ دُونَ الصِّدْقِ فِي الْعَمَلِ

أَقْسَمْتُ يَا عَيْنُ لا أَبْكِي عَلَى طَلَلٍ بَلْ أَرْفَعُ الصَّرْحَ مَيْمُونًا عَلَى الطَّلَلِ

كما يشقى الشاعر بالمشيب وقد أكل نضارته، وهد قواه، وشتت عنه رفاق الصبا، فيروح يُنَفِّسُ عن نفسه في حوار مبسط-ومن طرفٍ واحد كأنما يخاطب الشاعر نفسه-بينه وبين الدار التي شهدت أيام صباه وجمعت بينه وبين أحبابه، فيسائلها عن هذه الأيام الزاهيات، وأولئك الرفاق النازحين، لكنه لا يجد لديها جوابًا، فيعود يكفكف دمعه المدرار:

رَجَعْتُ لِلدَّارِ بَعْدَ الشَّيْبِ أَسْأَلُهَا مَاذَا أَصَابَكِ بَعْدَ الْهَجْرِ يَا دَارُ؟

وَأَيْنَ عَهْدُ الْهَوَى الْمَيْمُونُ فِي زَمَنٍ تَرَقْرَقَتْ فِيهِ أَنْوَارٌ..وَأَزْهَارُ؟

([234])-ديوان "كيف ألقاك" : 39.

([235])-ديوان "عصر الشهداء": 103.

وَأَيْـنَ فَـيْضٌ مِـنَ الأَحْـلامِ مُؤْتَلِقًـا وَأُغْنِيَـــاتٌ وَأَشْـــوَاقٌ وَأَسْرَارُ
تَحَـدَّثِي عَـنْ رِفَـاقٍ طَـالَ بُعْـدُهُمُ أَمَـا لَـدَيْكِ عَـنِ الأَحْبَـابِ أَخْبَـارُ
لَمْ تُفْصِـحِ الـدَّارُ عَـمَّا دَارَ فِي خَلَـدِي يَمَامَةٌ سَـجَعَتْ .. وَالـدَّمْعُ مِـدْرَارُ[236]

وفي قصيدة "طال الفراق"[237] تتجلى أهم مظاهر الحنين لدى الكيلاني، عنيت حنينه إلى وطنه الحبيب مصر، الذي اضطر إلى مغادرته هربًا من اعتساف السلطة إلى مدينة دبي بالإمارات العربية، لكن لم تستطع بلهنية العيش التي انتقل إليها، أو طول المدة التي مكثها بتلك المدينة (25عامًا) أن تنسيه وطنه الذي على أرضه نشأ ودرج، ونما واغتذى، ويطالعنا في القصيدة حنين لاهب، وعاطفة صادقة جياشة، وفيها إلى جانب ذلك نوع خاص من الحنين إلى الوطن، وهو الحنين إلى الوطن بوصفه قيمة معنوية باقية لا تنال منها السنون، لا بوصفه ربوعًا ومنازل يبليها مر الزمان وكر الحدثان، وهي مطولة أجتزئ منها بالأبيات الآتية:

طَـــالَ الْفِـــرَاقُ وَآدَنِي تَرْحَـــالِي شَـــوْقُ الأَحِبَّـــةِ جَـــامِحٌ بِخَيَـــالِي
وَطَنِـــي حَمَلْتُـــكَ فِي فُـــؤَادِيْ عَاشِـــقًا فِي كُـــلِّ مُنْعَطَـــفٍ وَكُـــلِّ مَجَـــالِ
وَهَتَفْـتُ بِاسْـمِكَ بَـيْنَ أَرْجَـاءِ الـدُّنَا مُـــتَرَنِّمًا بِهَـــوَى الـــتُّرَاثِ الْغَـــالِي
وَبِرَايَـةِ "التَّوْحِيـدِ" تَحْمِـي حَوْضَـهَا وَبِعِلْمِـــكَ السَّـــبَّاقِ فِي الأَجْيَـــالِ
بِالصِّيدِ مِـنْ قَـوْمِي وَسِـفْرِ خُلُـودِهِمْ عِنْـــدَ الْجِهَـــادِ وَصَـــوْلَةِ الأَبْطَـــالِ
وَبِنِيلِـكَ الْعِمْـلَاقِ يَهْـدِرُ فِي دَمِـي وَيَبُـثُّ رُوحَ الْبَعْـثِ فِي أَوْصَـالِي
وَطَنِي فَدَتْكَ الرُّوحُ يَـا أَرْضَ الْهُـدَى وَالْحُـــبِّ وَالإِيـــمَانِ وَالأَقْيَـــالِ
فِي الْبِيـدِ..فِي قَلْـبِ الْمَـدَائِنِ وَالْقُـرَى إِلا وَطَيْـفُ هَـوَاكَ يَشْـغَلُ بَـالِي
فَـإِذَا اتَّجَهْـتُ إِلَى الْمَشَـارِقِ رَاجِـلا أَوْ فِي الْمَغَـارِبِ كُنْـتَ أَنْـتَ حِيَـالِي
حُبِّـــي وَحُبُّـــكَ جَـــوْهَرٌ مُتَأَصِّـــلٌ لا حُـــبُّ أَلْـــوَانٍ وَلا أَشْـــكَالِ

(236)-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 30.

(237)-ديوان "مدينة الكبائر": 43.

لَمْ يَسْـبِنِي يَـا مَـوْطِنِي تِلْـكَ الرُّبَـا وَشَـذَى الرِّيَـاضِ وَمَرْتَـعِ الأَمْثَـالِ

لَكِـنَّمَا اهْتَـاجَ الْحَنِـينُ لأُمَّـةٍ كَانَـتْ مَنَـاطَ حَضَـارَةٍ وَمِثَـالِ

يبقى أن أشير إلى مجموعة من السمات انطبع بها شعر الحنين عند الكيلاني، كما تجلت-من قبله- في كثير من قصائد الاغتراب والحنين في الشعر العربي[238]، ويأتي في مقدمتها الرقة المفرطة، والعاطفة الجياشة، والبعد عن الجزالة والتماسك، وكلها أمور تنعكس بدورها في الأداة والتشكيل الفني لدى الشاعر؛ فعدم التماسك يؤدي إلى كثرة أدوات الاستفهام، والشعور بالفقد يستلزم التعامل مع أدوات النداء والاستغاثة والندبة، والانفجارات العاطفية الباكية تجعل التعامل مع حروف اللين والمد شيئًا طبيعيًّا لا سيما في القوافي، كما نلاحظ لدى الشاعر ميلا إلى الأخذ بأسلوب الحوار المبسط كأن يكلم الشاعر نفسه يبثها حنينه وأنينه، وكثيرًا ما يتكئ الشاعر على القوافي المكسورة لأن الكسر يوافق حالة الشكوى والأنين والانكسار، والقصائد عادة ليست طويلة لأنها مجرد نفثات للمستطار، فضلا عن الاتكاء على رموز بعينها تشيع في مثل هذا الشعر كالقطا والحمام واليمام والبرق والريح أو النسيم، كما في قول الشاعر:

أَلا يَـا عَـابِرَ الأَنْسَـامِ هَـلْ عِنْـدَكَ مِـنْ خَـبَرِ؟

عَـنِ النَّـائِينَ عَـنْ.. عَيْنِـي بَـلِ الثَّـاوِينَ فِي فِكْـرِي

وَعَمَّـنْ فَـارَقُوا يَوْمًـا فِـرَاقَ الْقَهْـرِ لا الْهَجْـرِ

أَتَـدْرِي عَـابِرَ الأَنْسَـامِ مَـا شَـوْقِي؟ أَلا تَـدْرِي؟

لَكَـمْ خَالَطْـتَ أَنْفَـاسِي وَآهَـاتِي التِـي تَـبْرِي

حَنِـينٌ لَمْ يَكُـنْ يَقْـوَى عَـلَى إِيوَائِـهِ غَـيْرِي

سُـطُورٌ خَطَّهَـا دَمْعِـي، وَيَـا لَلـدَّمْعِ مِـنْ حِـبْرِ

فَخُذْهَا أَنَّـةَ الْمَحْـزُونِ فِي وَادِي الأَسَـى الْمُـذْرِي[239]

([238])-أفدت في كثير من هذه السمات من د.عبده بدوي : قضايا حول الشعر جـ 1/ 96-97.

([239]) -ديوان" أغاني الغرباء" :72.

obeikandl.com

المبحث الثامن: رسالة الفن

حين طبع الكيلاني ديوانه الأول، وباكورة إنتاجه الأدبي "نحو العلا"، كتب على يمين صفحة الغلاف من أعلى "الرسالة الأولى"، وتلك ضميمة واضحة الدلالة على أمرين: أولهما-أن هذا الديوان إنما هو أول الغيث، وأن شاعرنا كان يعد نفسه لمشروع أدبي ضخم وشامل في آنٍ معًا، وكذلك كان، وثانيهما-أن الشعر-أو الأدب بوجه عام-الجدير بتلك التسمية من وجهة نظر الشاعر، لا بد أن يكون ذا رسالة إنسانية فنية تمتاح من التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة، والكيلاني يعلن ذلك في وضوح حين يقول: "إنني أديب داعية يستشعر عظم المسئولية وأهمية نشر الرسالة الخالدة"[240].

وهذه الرسالة التي باتت تشغل بال الكيلاني، نستطيع أن نتلمس كثيرًا من معطياتها فيما آمن به الكيلاني، وطفق يدعو إليه في كثير من كتاباته حول "الأدب الإسلامي"، أو الدعوة إلى اتجاه أدبي يعالج قضايا الإنسان والكون والحياة من خلال التصور الإسلامي، لكنه أبى إلا أن يجعل لشعره نصيبًا من حمل تلك الرسالة والتبشير بها، وفي قصيدته "الفن"[241] أولى قصائد ديوانه "عصر الشهداء" يوضح لنا الكيلاني كيف أنه لا يرى الفن غاية بل وسيلة إلى رسالة إنسانية مؤداها تهذيب المشاعر والسلوك، وبناء الضمائر والنفوس، وإيقاظ الأمة من سبات تغط فيه:

عَشِقْتُ الْفَنَّ، لا لِلْفَنِّ، لَكِنْ لِلَّذِي أَسْمَى
وَسددَّتُ قَصِيدَ الشِّعْرِ فِي قَلْبِ الْخَنَا سَهْمَا

.....

تَخِذْتُ الْفَنَّ مِعْرَاجًا إِلَى غَايَاتِنَا الشُّمَّا
أُغَرِّدُ فَوْقَ قِيثَارِي نَشِيدًا يُشْعِلُ الْهِمَمَا
يُذكِّرُنَا بِمَاضِينَا، وَيَكْشِفُ عَنْهُ مَا غَمَّا

---

(240)-حوار مع نجيب الكيلاني (مخطوط)، أعدته السيدة زوجته، نقلا عن مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة (مرجع سابق): 2/ 412.

(241)-ديوان "عصر الشهداء": 14.

وَيُـوقِظُ هَـاجِعَ الآمَـالِ كَـيْلا نَقْـرَبَ النَّوْمَـا

ثم يمضي الكيلاني موضحًا الغاية التي يرضاها لفنه:

أُرِيــدُ الْفَــنَّ مِحْرَابًــا، تُــؤَجِّجُ أُفْقَــهُ الثَّــوْرَهْ
يُحِيــلُ بُــرُودَةَ الأَحْــزَانِ فِي أَيَّامِنَــا جَمْــرَهْ
وَيُحْيــي بَــيْنَ أَضْــلُعِنَا نِــدَاءَ الأُمَّــةِ الْحُــرَّهْ
يُدَمْـدِمُ مِثْـلَ عَاصِـفَةٍ، وَيَسْـحَقُ كَأْسَـنَا الْمُـرَّهْ

.....

أُرِيــدُ الْفَــنَّ مُنْطَلَقًــا يَقُــودُ خُطَانَــا لِلنَّصْرِ
يُوَاكِـبُ ثَـوْرَةَ الأَحْـرَارِ عِنْـدَ طَلائِـعِ الْفَجْـرِ
وَيَحْـدُو كُـلَّ قَافِلَـةٍ تُصَـارِعُ غَضْـبَةَ الشَّرِّ
يَمُــدُّ رَبِيعَــهُ الْفَيْنَــانَ فَــوْقَ مَطَــارِحِ الْفَقْــرِ
يُــرَوِّي رَكْبَنَــا الظَّــامِئَ مِــنْ يَنْبُوعِــهِ الثَّــرِّ
يُطِـلُّ عَـلَى وُجُـومِ اللَّيْـلِ وَالْمُجْهُـولِ كَالْبَـدْرِ

.....

أُرِيــدُ الْفَــنَّ أَنْ يُلْهِــبَ رُوحَ الْغَضْــبَةِ الْكُــبْرَى
يُشَـكِّلُ جِيلَنَـا الْحَـيْرَانَ.. يُـذْكِي فِكْـرَهُ الْحُـرَّا
يُطَــارِدُ خَيْبَــةَ الآمَــالِ وَالإِلْحَــادَ وَالْفَقْــرَا
يَفِيضُ عَـلَى الرُّبَـا عَـدْلا، وَيَمْـلأ رَوْضَـهَا بِـرَّا
يُرَتِّــلُ رَائِــعَ الآيَــاتِ فِي جَنَبَاتِهَــا الْخَضْرَــا
يَضُوعُ بِرَوْعَـةِ الْمَـاضِي، وَيُنْشِـدُ أَمْجَـدَ الـذِّكْرَى

وتلك-ولا ريب-غايات جسام عظام، لكنها لا تشفع لما في القصيدة-وقد أتيت على معظمها-من نبرة خطابية زاعقة تلفها من مبدئها إلى منتهاها، وقد تخففت قصيدته "أبحث عن

واحة"[242] من هذه الخطابية بعض الشيء، وهو يستشعر من خلالها روح الفقد في عصر ـ زائف لا يعرف سوى الفن الزائف، فيظل يبحث عن تلك الواحة/ الفن، أو ذلك الفنان الإنسان الذي يدرك رسالة فنه:

.....

أَجْرَاسٌ جُنَّتْ لا تَصْمُتْ

وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْ وَاحَة

يَتَرَعْرَعُ فِيهَا نُورُ الصِّدْق

تُنْعِشُهَا أَنْسَامُ الْحَقّ

تُشْرِقُ بِالأَمَلِ الْحُلْو

أَبْحَثُ عَنْ فَنَّانٍ إِنْسَان

أَقْرَأُ فِي عَيْنَيْهِ الْحُب

يُشْرِقُ مِنْ فَمِهِ الإِيمَان

يَسْقِي الظَّامِئَ فَجْرَ حَنَان

يُلْهِبُ قَلْبَ الْيَائِسِ ثَوْرَه

يُطْفِئُ لَوْعَةَ رُوحٍ تَحْقِد

يَغْرَقُ فِي حُلْمٍ أَخْضَر

يَهْدِمُ سُورَ السِّجْنِ الأَسْوَد

يَرْفَعُ أَغْلالَ الأَحْزَان

يَخْنُقُ أَجْرَاسَ الزَّيْف

يَسْحَقُ أَصْنَامَ الْخَوْف

على أن أهم صفتين يجب أن يتصف بهما الفن الذي ينشده شاعرنا، هما: الصدق والوضوح، وحين يدعو الكيلاني إلى الصدق في الفن، فإنه لا يقصد به إلى الصدق الذي هو مطابقة الواقع ونسخه، بل يقصد إلى صدق الفنان مع نفسه، وهو ما عناه ابن طباطبا العلوي

(242)-المرجع السابق: 50.

obeikandl.com

(ت:322هـ/ 934م) من الصدق مع ذات النفس "بكشف المعاني المختلجة فيها، والتصريح بما كان يكتم فيها، والاعتراف بالحق في جميعها"[243]، وما بات يعرف لدى النقاد "بالصدق الفني" في مقابل "الصدق الواقعي" بمعنى "أن التجربة الشعرية لا تشترط المعايشة الواقعية بقدر ما تفترض الممازجة الوجدانية حتى وإن كانت متخيلة، فلا يتحتم أن يمارس الشاعر تجربته الإبداعية ممارسة الفاعل، بل يكفي أن يتمثلها تمثل المؤمن بها، المقتنع بكافة عناصرها، المخالط لها مخالطة تفوق في عمقها ورحابتها مخالطة من يعيش التجربة بجسده دون أن يصبغ عليها من ذات نفسه ومن صميم مشاعره"[244]:

الْفَنُّ هُوَ الصِّدْقُ الأَكْبَر
الْكَاذِبُ لا يَخْلُقُ فَنّا
يُفْرِزُ أَنْغَامًا تَتَعَثَّر
يَتَغَنَّى بِاللَّحْنِ الْمَيِّت
وَالنَّايُ هَوَاءٌ وَضَجِيج
وَالشِّعْرُ قَوَافٍ تَتَحَشْرَج
.....
إِنْ يَصْدُقْ فَنَّانٌ مَعَ نَفْسِه
تَرْعَاهُ قُلُوبُ الْبَشَرِيَّه
تَبْكِي مَعَهُ دُونَ رِيَاء
أَوْ تُنْشِدُ أَحْلَى غِنَاء
أَوْ تُحْرَقُ فِي ثَوْرَتِهِ الْكُبْرَى
وَتُمَزِّقُ عَارَ الْفَجْرِ الْكَاذِب[245]

([243])-عيار الشعر: تحقيق د.عبد العزيز بن ناصر المانع، توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة: 24.

([244])-د. محمد فتوح أحمد: جدليات النص الأدبي: 212.

([245])-ديوان "عصر الشهداء": 50ـ51.

obeikandl.com

وتتجلى دعوة الشاعر إلى "الوضوح" من خلال حملته على شعر الرمز الـذي يصـل إلى حـد الإغلاق والتعمية، فقام-بسبب من هذا الغموض المقيـت-جـدار سـميك بـين الشـعر الحـديث والمتلقي العربي، حتى ليباهي أحد رواد هذا الشعر-وهو أدونيس-بأن من سمات هذا الشعر ذلك التنافر بين الشاعر والقارئ[246]:

الرَّمْزُ فِي فُنُونِنَا
مُوَلَّدٌ مِنْ خَوْفِنَا
مُجَسِّدٌ هُرُوبَنَا
يُلْغِي أَصَالَةَ الشُّعُور
يَقُودُ لِلْقُبُور
وَيَطْمِسُ الْحَقِيقَةَ الْمُرَوِّعَه
.....
أَضْحَى الْوُضُوحُ فَرْضَ عَيْن
لا تَتْرُكُوا الْحَيَارَى يَسْأَلُون:
أَيْنَ..أَيْن...
تَبَيَّنُوا..تَبَيَّنُوا..
وَأَفْصِحُوا..وَصَرِّحُوا
لِيُولَدَ الإِنْسَانُ مِنْ جَدِيد
وَيَفْضَحَ الرُّكُودَ وَالْجُمُود
وَخِسَّةَ الْجَلادِ وَالْقُيُود
وَيَمْلأَ الآفَاقَ بِالْوُرُود
الرَّمْزُ مَيَّعَ الرِّسَالَه
وَأَوْقَعَ الْجُمُوعَ فِي الْجَهَالَه[247]

([246])-انظر: التجديد في القصيدة العربية المعاصرة، مؤسسة يماني الثقافية الخيرية، احتفالية الدورة الثالثة: 2/ 110.

([247])-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 10.

obeikan.com

وثمة بدعة أخرى أخذت تغزو الأدب العربي الحديث، وباتت تشكل -إلى جانب الرمز المعتم- واحدة من ملامح الغموض التي تخيف شاعرنا، وهي قصيدة النثر في اطراحها للعروض واستبدالها به موسيقى الباطن:

أَنَا لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ شِعْرِ الرَّمْز
الْمُوغِلِ فِي الْعَتْمَه
الْهَارِبِ فِي صُنْعِ الدَّهْشَه
لَمْ أَتَعَلَّمْ كَيْفَ أُغَلِّفُ أَفْكَارِي
بِالإِيحَاءِ الْغَامِض
هَذَا الْوَحْشُ الرَّابِض
بَيْنَ شَغَافِ الْقَلْبِ النَّابِض
مِحْبَرَتِي لِفُنُونِ التَّعْقِيدِ خَصِيمَه
مَاذَا أَفْعَل؟
وَوُضُوحُ التَّعْبِيرِ نَقِيصَه
مَاذَا أَكْتُب؟
وَالأَدَبُ الصَّادِقُ عِيٌّ وَقُصُور
الْعَيْبُ وُضُوحُ التَّعْبِير!!
وَالشِّعْرُ هُوَ الْمَنْثُورُ الْمُبْتُور
وَالنَّثْرُ مُوسِيقَى الْبَاطِن
ذَلِكَ قَانُونُ الإِبْدَاعِ الأَحْدَث[248]

لكنّ فارقا مهمًّا تنبغي ملاحظته بين الغموض السلبي الذي يعيبه الشاعر، والغموض الإيجابي أو "الفني" الذي هو من طبيعة الشعر، ولا يتناقض مع الوضوح الذي يدعو إليه، فأفخر الشعر- كما يقول أبو إسحاق الصابي(ت:374هـ) ـ:"ما غمض فلم يعطك غرضه

[248]-السابق: 42.

obeikandl.com

إلا بعد مماطلة منه وغوص عليه"[249]، كما أن نفور الشاعر من الرمز المعتم، ودعوته إلى "الوضوح" في التعبير، ليست إيثارًا للتقريرية والمباشرة على التعبير الفني الموحي، فللرمز في الأعمال الفنية بعامة، والأدبية بخاصة له-على حد قوله -: "وظيفة حيوية، فضلا عن أنه صورة مؤثرة من صور الجمال التعبيري...وذلك الرمز يوحي بما للأديب من موهبة صادقة، وثقافة واسعة، وتمكن من امتلاك ناصية الأداة، وقدرة على تعميق رؤاه، وغرسها في فكر القارئ ووجدانه، كما أنه يخفف من رتابة السرد ذي الإيقاع البطيء، ويكسب التعبير حيوية وإثارة، ويجسم الرؤى تجسيمًا بارزًا، مما يساعد على إلهام المتلقي بالمعاني التي يريدها الكاتب مثلا ويركز عليها"[250].

([249])-أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي: رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر، تقديم وتحقيق د.محمد عبد الرحمن الهدلق، والرسالة منشورة بكتاب "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، مطبوعات النادي الأدبي الثقافي بجدة 1990م: 2/ 595.

([250])-نجيب الكيلاني: الرمز في أدبنا المعاصر: مقال بمجلة "الأمة " القطرية، عدد 35 (أغسطس1983م)، ص 20.

obeikandl.com

المبحث التاسع: آفاق أخر

ثمة محاور أخر عند الكيلاني لم تشغل من شعره مساحة واسعة كسابقتها، لكنها في حاجة إلى وقفة وإن قصرت، وأهم هذه المحاور ما يأتي:

أولا -الطبيعة:

لم تحظ الطبيعة من شعر الكيلاني-على وفرته وتنوعه-بنصيب وفير، وذاك أمر لافت للنظر، خصوصا حين نتكلم عن شاعر مثل نجيب الكيلاني نشأ في بيئة ريفية ذات طبيعة ساحرة تغري أي شاعر بالتوقف أمامها متأملا وواصفاً، وربما كان في طبيعة الحياة القاسية التي عاشها الكيلاني مبرر لانشغاله بهمومه وهموم أمته عن التغني بالطبيعة وجمالها، فضلا عن ضياع كثير من شعر الكيلاني، وقد يكون في شعره المفقود في غمرة الظروف التي مر بها قصائد في الوصف لم تصلنا.

ومهما يكن من أمر، فإن ما وقفت عليه من شعر للكيلاني في الوصف لم يتجاوز ثلاث قصائد، والوصف فيها يسير في خط واحد لا يكاد يتجاوزه؛ فهي إلى التأمل الصوفي أقرب منها إلى الوصف الخالص؛ إذ تصبح مفردات الكون مصدرًا للإيمان بالله الخالق، وطريقًا إلى التماس الأدلة والبراهين على عظمته وتفرده، ففي قصيدة "في ملكوت الله"[251] يرى الشاعر في الكون الساجد العابد لله بأشجاره وجباله وأنهاره قرآنا واضح الدلالة على قدرة الخالق المبدع أكثر من أي كتاب آخر:

أَغْلَقْتُ كِتَابِي
وَصَحَائِفَ مَنْ زَعَمُوا الْحِكْمَه
الْكَوْنُ أَمَامِي قُرْآن
آيَاتُ النُّورِ تَفِيض
أَنْهَارٌ مِنْ أَلْقِ الْحِكْمَه
.....
سَجَدَ الْكَوْنُ لِرَبِّ الْكَوْن
تَبْكِي الأَشْجَارُ إِذَا ظَمِئَتْ

([251])-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 23.

obeikandl.com

تَتَمَايَلُ وَجْدًا

تَتَنَاوَحُ شَجْوًا وَهُيَامًا

وَجِبَالٌ تَتَعَبَّدُ فِي الْمِحْرَابِ الأَكْبَر

وَتُصَلِّي..تَضْرَع

دَاوودُ..يُشَارِكُهَا الذِّكْر

الْكَوْنُ يُسَبِّحُ بِاسْمِ الله

أَنْهَارٌ.. وَضِفَافٌ تَتَنَادَى..

سُبْحَانَ الْحَيِّ الْبَاقِي الْقَيُّوم

لا شَيْءَ سِوَاهُ يَدُوم

لا رَبَّ سِوَاه

-كما يصف الشاعر في قصيدة "أغنية الصباح"[252] ميلاد الفجر من رحم الليل البهيم، فلا يخرج عن هذا الجو الإيماني الذي يستشعر الكون كله يتغنى بالتكبير لله، ويتنفس مع الصباح ذكرًا وصلاة:

قَدْ أَطَلَّ الْفَجْرُ وَضَّاءَ الْجَبِينْ

خَاشِعًا لله رَبِّ الْعَالَمِينْ

دَاعِيًا لِلصِّدْقِ وَالْحَقِّ الْمُبِينْ

فَتَيَقَّظْ ..وَتَذَكَّر

أَنَّهُ اللهُ أَكْبَرْ

الرَّوَابِي الْخُضْرُ ذِكْرٌ وَصَلاهْ

وَطُيُورُ الدَّوْحِ تَشْدُو لِلْحَيَاهْ

بَيْنَ أَنْسَامٍ وَرَوْضٍ وَمِيَاهْ

انْظُرِ الْكَوْنَ وَفَكِّرْ

(252)-السابق: 6.

obeikandl.com

إِنَّـــــهُ اللهُ أَكْـــــبَرْ

....

يُهْـرَعُ الأَطْفَـالُ لـلأَرْضِ الْـبَرَاحْ

يَتَغَنَّـــوْنَ بِـــأَفْرَاحِ الصَّـــبَاحْ

نَشْـــوَةٌ دُونَ مَـــزَامِيرٍ وَرَاحْ

وَقُلُـــوبٌ.. تَتَعَطَّـــرْ

بِصَـــدَى اللهِ أَكْـــبَرْ

-ومما يلفت النظر كذلك في وصف الكيلاني-بجانب ذلك الملمح الإيماني-تلك الكثافة التشخيصية التي تخلع الحياة على كل مظاهر الطبيعة، فالكون يسجد، والأشجار تبكي وتظمأ، وتنوح وتهيم، والجبال تتعبد وتصلي وتضرع، والأنهار والضفاف تتنادى، والفجر وضاء الجبين، وهكذا تستحيل الطبيعة كائنات تنبض بالحياة والحركة والشعور، وتزدهي حسنًا وجمالا يخلب الأنظار، ولا غرو-بعد ذلك-أن يعجب الشاعر من أولئك الذاهلين كيف تعشى عيونهم عن كل هاتيك المحاسن:

أَيُّهَـا الـذَّاهِلُ عَـنْ هَـذَا الْوُجُـودْ وَعَـنِ الْحُسْـنِ وَآيَـاتِ الْجَـمَالْ

انْظُـرِ الرَّوْعَـةَ فِي حَـوْضِ الْـوُرُودْ وَارْمُـقِ السِّـحْرَ بِهَاتِيـكَ الظِّـلالْ

يَلْـبَسُ الـرَّوْضُ أَفَـانِينَ الْـبُرُودْ ثُـمَّ يَبْـدُو فِي خُشُـوعٍ وَجَـلالْ

وَغُصُـونُ الـدَّوْحِ أَوْتَـارٌ وَعُـودْ عَزْفُهَـا الْمَسْـكُوبُ حُـبٌّ وَابْتِهَـالْ

يَـا لَـهُ خُلْـدٌ.. وَحُـبٌّ.. وَفُنُـونْ

سَـاحَةُ الْفَـنِّ لِقَلْبِـي .. مَعْبَـدُ وَشَـذَاهَا خَمْـرَةٌ لِلْعَاشِـقِينْ

هَا هُنَـا الْعُصْـفُورُ أَضْـحَى يُنْشِـدُ بِأَغَـانِي الطُّهْـرِ وَالْـوُدِّ الْمُكِـينْ

وَهُنَـاكَ النَّهْـرُ صُـبْحًا يُزْبِـدُ وَبِـهِ فِي اللَّيْـلِ صَـمْتُ الْخَاشِـعِينْ

وَتَـرَى الـرِّيحَ كَجِـنٍ تُرْعِـدُ فِي فِجَـاجِ الـرَّوْعِ أَوْ وَادِي الْحَنِـينْ

يَـا لَـهُ خُلْـدٌ..وَحُـبٌّ.. وَشُـجُونْ

قُـدْرَةُ الْخَـالِقِ فَـوْقَ الشُّـبُهَاتْ وَتَعَالَـتْ عَـنْ شُـكُوكٍ وَظُنُـونْ

فَاضَتِ الأَرْضُ بِشَتَّى الْمُعْجِـزَاتْ عَجَبًـا كَيْـفَ إِذًا تَعْشَـى الْعُيُـونْ؟

أَيُّهَـا الْغَـارِقُ فِي وَهْـمِ الْحَيَـاة آنَ أَنْ تَفْـتَحَ هَاتِيـكَ الْجُفُـونْ

كَـيْ تَـرَى "اللهَ" وَفَـنَّ الْكَائِنَـاتْ لَيْسَتِ الْأَلْوَانُ ضَرْبًا مِنْ مُجُـونْ[253]

وقد يتخذ الشاعر في تعامله مع الطبيعة منحى يقترب من تعامل الرومانتيكيين، حين يلوذ بأحضان الطبيعة ليهرب إليها من جهامة الواقع وقساوته، فيندمج مع ظواهرها، ويرافـق ظباءهـا وغزلانها مصعدًا معها في الآكام والتلال؛ ليفر من شرور النـاس وزيفهـم، وليشـعر معهـا بالعيـد الذي افتقده بينهم:

وَحَسِبْتُ الْعِيدَ فِي اللَّهْـوِ الْجَمِيـلْ أَنْثَنِـي فَرْحَـانَ فِي وَادِي النَّخِيـلْ

حَـوْلِيَ الصَّـحْبُ عَـلَى أَفْـوَاهِهِمْ غِنْـوَةُ الْعُصْـفُورِ أَوْ شَـدْوُ الْهَـدِيلْ

تَـارَةً نَـرْكُضُ مِـنْ خَلْـفِ الظِّبَـا ثُمَّ نَجْرِي كَيْ نَرَى سِحْرَ الأَصِـيلْ

فَـأَتَى الْغَـدْرُ بِأَسْـتَارٍ لَـهُ غَيَّبَتْ عَنِّي الْهَـوَى الْغَـضَّ النَّبِيـلْ

كَيْفَ يَا صَاحِ تَقُـولُ: الْيَـوْمُ عِيـدْ؟

لَيْتَنِـي رَافَقْـتُ أَسْرَابَ الْغَـزَالْ حَيْـثُ لا شَرٌّ وَلا زَيْـفٌ يُقَـالْ

نَصْـعَدُ الآكَـامَ فِي صَـحْوَتِنَا حَوْلَنَـا طُهْـرٌ وَضِيءٌ وَرِمَـالْ

نَمْـزِجُ الـرُّوحَ بِأَعْطَـارِ الْهَـوَى وَنَذُودُ الْعَقْـلَ عَـنْ بَحْـثِ الْجَمَالْ

نَأْخُـذُ الـدُّنْيَا كَـمَا أَبْـدَعَهَا بَـارِئُ الأَكْـوَانِ مِـنْ غَـيْرِ ابْتِـذَالْ

حِينَـذَا أَهْتِـفُ: إِنَّ الْيَـوْمَ عِيـدْ[254]

ثانيًا-التأمل:

([253])-ديوان "كيف ألقاك": 61.

([254])-ديوان "أغاني الغرباء": 74-75.

وللشاعر وقفات تأملية يحاول فيها سبر أغوار هذا الوجود وتلك الحياة، وهذه التأملات-مع قلتها-لم ترق إلى درجة التعمق الفلسفي المفضي- إلى الحيرة والتمزق؛ إذ إنها كثيرًا ما تفيء إلى التصور الإسلامي، تعتصم به من هذه البلبلة التي وقع فيها كثير من الشعراء.

ففي قصيدة "حقيقة"[255] يتأمل الشاعر حقيقة المتاع الدنيوي، ويخرج من تساؤلاته المضنية بأن هذا المتاع إلى زوال، فليول وجهه شطر ربه الباقي الذي لا يزول، ومن ثم فالقصيدة دعوة إلى الزهادة في هذا المتاع أكثر من كونها نوعًا من التأمل الحائر المرتاب:

سَاءَلْتُ نَفْسِي- طَوِيلا مَاذَا بِرَبِّكِ بَعْدُ؟
دَرَاهِمٌ وَكِسَاءٌ ضَافٍ، وَسُهْدٌ وَكَدُّ
وَأُمْنِيَاتٌ كِبَارٌ تَرُوحُ عَنِّي وَتَغْدُو
وَالْعُمْرُ فَيْضُ بَلاءٍ مُقَيَّدُ الْخَطْوِ عَبْدُ
....
سَاءَلْتُ نَفْسِي- طَوِيلا مَاذَا بِرَبِّكِ بَعْدُ؟
حَصِيلَتِي جَرَعَاتٌ مِنَ الدَّوَاءِ وَسُهْدُ
وَتَوْصِيَاتُ طَبِيبٍ وَكَأْسُهُ الْمُرُّ شَهْدُ
غَامَتْ سَمَاوَاتُ دَرْبِي وَأَثْقَلَ الْخَطْوَ جَهْدُ
فَأَيْنَ أَيَّامُ صَفْوِي؟ وَأَيْنَ حُبُّكِ هِنْدُ؟
لِكُلِّ عُمْرٍ غُرُوبٌ سِيَّانِ قُرْبٌ وَبُعْدُ
نَسْمُو وَنَهْبِطُ فِيهِ يَعْرُوهُ جَزْرٌ وَمَدُّ
يَا رَبِّ أَنْتَ رَجَائِي فَلَيْسَ بَعْدَكَ بَعْدُ

-كما يقف الشاعر أمام هذا الوجود متسائلا عن كنهه وغموضه، لكنه سرعان ما يدرك ضعفه وعجزه عن الوصول إلى حقيقته، فيلجأ إلى ربه داعيًا أن يمنحه الرضا ويمحو مرارته وهوانه:

([255])-ديوان "مهاجر": 51.

obeikandl.com

جَوَّبْــتُ فِي الآفَــاقِ غَــيْرَ مُقَصِّرِــ وَارْتَــدتُّ كُــلَّ مَــدَارَةٍ وَمَكَــانِ
وَمَــلأْتُ بِــالْعِلْمِ الْكَثِيــفِ بَصِــيرَتِي وَالْفَلْسَــفَاتُ طَرِيقُهَــا أَبْــلانِي
وَظَلِلْــتُ أَبْحَــثُ فِي الوجُــودِ وَسِرِّهِ وَالسَّــيرُ فِي جَنبَاتِــهِ أَعْيَــانِي
سَــاءَلْتُهُ عَــنْ كُنْهِــهِ وَغُمُوضِــهِ وَتَسَــاؤُلِي الْمِلْحَــاحُ قَــدْ أَضْــنَانِي
مَاذَا جَنَيْتُ مِنَ التَّسَاؤُلِ وَالأَسَى؟ مَــاذَا وَرَاءَ اللَّــفِّ وَالــدَّوَرَانِ؟
آمَنْــتُ أَنَّ اللهَ أَعْــدَلُ حَــاكِمٍ وَالْحَــقُّ مِنْــهُ مَنَــارَةُ الأَكْــوَانِ
يَا وَيْحَ قَلْبِيَ هَلْ تَشَرَّـبَ بِالرِّضَـا؟ أَوَّاهُ مِــنْ بَغْيِــي وَمِــنْ نِسْــيَانِي
رَبَّــاهُ ذَا ضَــعْفِي وَقِلَّــةُ حِيلَتِــي هَـلا أَزَلْـتَ مَـرَارَتِي وَهَـوَانِي[256]

وواضح أن الشاعر في تأمله كمن يحوم حول الحمي يخاف أن يقع فيه، غير أن له قصيدتين أخريين تخرجان عن هذا النهج العام الذي ارتضى فيه الاحتماء بالرؤية الإسلامية، في الأولى منهما "دنيا"[257] يبدو الشاعر شاكًا قلقًا، يعاني التمزق والحيرة إزاء حقيقة الحياة الدنيا وهي تجمع عليه متناقضات شتى يحار في تفسيرها، وقارئ القصيدة يستشعر هذه الحيرة اللاهبة من خلال اتكاء الشاعر المكثف على أسلوب الاستفهام، دونما جواب:

شَــــوْقٌ إِلَيْــــكِ
أَسِــيرُ يَــدَيْــــكِ
وَأَدْعُــــو عَلَيْــــكِ
فَأَنْــــتِ النَّعِيــــــم
وَأَنْــــتِ الْجَحِيــــم
وَأَنْــــــتِ الْهَنَــــــاء
وَأَنْــــــتِ الشَّقَــــــاء

(256)-ديوان "أغاني الغرباء": 31.

(257)-ديوان "أغنيات الليل الطويل": 8.

.....

فَمَـنْ أَنْـتِ يَـــا حُلْـوَتِي؟

وَكَيْفَ دَلَفْتِ إِلَى مُهْجَتِـي؟

وَمِـــنْ أَيْـــنَ جِئْـــتِ؟

وَكَـــــيْفَ مَلَكْـــــتِ..؟

وَفِيـــــمَ قَسَـــــوْتِ؟

وَأَنَّـــــى.. حَنَـــــوْتِ؟

لأَنْتِ التَّبَـارِيحُ وَالْبَلْسَـمُ

وَأَنْتِ اللَّذَائِـذُ وَالْعَلْقَـمُ

أَأَدْعُـــــو عَلَيْـــــكِ؟

وَأَهْفُـــــو إِلَيْـــــكِ؟

لَقَـــــدْ حِـــرْتُ فِيـــكِ

وَطَمَّـــــتْ شُكُوكِـــــي

وَلَـــــمْ أَدْرِ مَـــــاذَا ..

وَلا كَـــــيْفَ هَـــــذَا

فَمَـــنْ أَنْـتِ يَـا ظَبْيَتِـي؟

وَكَيْفَ نَجَاتِيَ مِـنْ حَـيْرَتِي؟

فَيَـا لَفُـؤَادِي مَـا أَصْـبَرَهْ!!

أَيَجْـنَحُ لِلصَّـفْحِ وَالْمَغْفِـرَهْ؟

obeikandl.com

وأما القصيدة الثانية "مسافر"[258] فإن رائحة "الجبر" تفوح منها واضحة، الأمر الـذي لا يتفق مع إسلامية الشاعر، حيث يتخيل الشاعر غاية وجوده في هذه الحياة كأنها رحلة سـفر لا بـد أن يتكبدها بآلامها ووعثائها، وهذا قدره المحتوم الذي لا مفر منه ولا معدى عنه:

هَكَـذَا شَـاءَ الْقَـدَرْ أَنْ نُرَى رَهْـنَ السَّـفَرْ
وَمَشَـيْنَا، وَمَشَـيْنَا.. بَعْـدَ أَنْ غَـابَ الْقَمَـرْ
هَـدَّنَا.. تَرْحَالُنَـا وَهَوَانَـا يَسْـتَعِرْ..
أُمْنِيَـاتٌ..بَـدَرَتْ مِـنْ بَعِيـدٍ، وَتَفِـرّ
نَسْـأَلُ الـنَّجْمَ حَيَـارَى أَيْـنَ يَـا نَجْـمُ الْمَفَـرّ؟
....
وَخَطَوْنَـا..وَخَطَوْنَـا فَـوْقَ أَشْـوَاكِ الْغِـيَرْ
وَسُـؤَالٌ.. هَـائِمٌ تَائِـهٌ لَـيْسَ يَقَـرّ
لِمَ نَمْضِي..هَكَـذَا وَإِلامَ نَنْتَظِـرْ؟
هَتَـفَ الْحَـادِي..بِنَـا إِنَّـهُ..أَمْـرُ الْقَـدَرْ
لَـيْسَ لِي مِـنْ غَايَـةٍ غَـيْرُ إِمْعَـانِ السَّـفَرْ
غَـيْرُ أَحْـزَانِ السَّـفَرْ غَـيْرُ وَعْثَـاءِ السَّـفَرْ

وليس يخفى ما في تينك القصيدتين السالفتين من حيرة وارتياب يتناقضان مع ما أثبتناه للشاعر من اعتصام بالتصور الإسلامي، لكنهما-أي الحيرة والارتياب-لم يكونا-على أية حال-السمة الغلباء، أو النهج الذي ارتضاه الشاعر في تأمله.

ثالثًا-الاجتماعيات:

الشعر الاجتماعي قليل في ديوان الكيلاني، ليس من ناحية الكم فحسب، ولكن من ناحية الكيف كذلك؛ إذ يدور شعره الاجتماعي في فلك النقد الاجتماعي فحسب، لا يتجاوزه إلى غيره

([258])-السابق: 19.

obeikandl.com

من القضايا الاجتماعية التي حفل بها غيره من الشعراء كالتعليم، وقضايا المرأة والأسرة، وغلاء الأسعار، والتقاليد الاجتماعية صالحها وطالحها ..وغيرها، بل إن الشاعر في نقده لأوضاع مجتمعه المتردية قد حصر نفسه في إطار موضوعات بعينها كالفقر والغنى، والتراجع الأخلاقي أو التدين المغشوش، على أننا لا نستطيع أن نغفل ما في شعر الكيلاني الاجتماعي-رغم قلته-من عاطفة إنسانية نبيلة، ووجدان جماعي يهتم بقضايا الجماعة إلى جانب قضايا الذات، فالشاعر يتنفس من رئة مجتمعه، ويأسى لعلله وأدوائه.

ولا ريب أن نشأة الكيلاني في بلد ريفي، وطلوعه من رحم الطبقة الوسطى قد ساعده على معايشة الفلاحين والفقراء والكادحين، فحمل همومهم وشدا بآلامهم، وفي قصيدته "البؤساء"[259] تصوير لأولئك المحرومين، وقد عضهم الفقر بنابه، في مقابل آخرين يسكنون القصور ويطعمون الشهي من المطعم، ويتقلبون في النعيم متغافلين عن أولئك الأشقياء المحروبين:

أَنَاخَ الدَّهْرُ فَوْقَهُمُ وَنَابَا ... وَشَبَّ الْبُؤْسُ بَيْنَهُمُ وَشَابَا

وَكَالَ لَهُمْ مِنَ الآلامِ كَيْلا ... يَفِيضُ تَعَاسَةً، وَيَفِيضُ صَابَا

وَلَمْ أَرَ آسِيًا يَحْنُو عَلَيْهِمْ ... وَلَمْ أَرَ حَوْلَهُمْ يَوْمًا صِحَابَا

إِذَا مَدُّوا الأَيَادِيَ وَهْيَ سُفْلَى ... تَرَى الْعُلْيَا سِيَاطًا أَوْ عَذَابًا

قُصُورٌ أُتْرِعَتْ خَيْرًا وَمَالا ... وَلَمْ تُجِبِ الشَّقِيَّ إِذَا أَهَابَا

يَجُولُ السَّائِلُ الْمَحْرُومُ فِيهَا ... فَلا يَلْقَى بِهَا إِلا عِتَابَا

ويحث الشاعر على الإحسان إلى أولئك الفقراء مستخدمًا أسلوب الترهيب والترغيب؛ فهو يصب جام غضبه على أولئك الموسرين، وينذرهم يومًا يقفون فيه أمام ربهم، وقد زال عنهم جاههم ومالهم، وفي المقابل يثني على المنفقين الباذلين، ولا يفوت الشاعر أن ينوه بما لهذا التكافل الاجتماعي من أثر في انتشار المحبة بين بني المجتمع، ونزع الحقد من قلوبهم:

رُوَيْدَ الأَثْرِيَاءِ هُنَاكَ رَبٌّ ... يُعِدُّ لَنَا الثَّوَابَ أَوِ الْعِقَابَا

رُوَيْدَ الأَثْرِيَاءِ هُنَاكَ يَوْمٌ ... لِيَرْفَعَ عَنْ عُيُونِهِمُ النِّقَابَا

([259]) ديوان "نحو العلا": 61.

وَرَاءَ ظُهُـورِهِمْ تَرَكُـوا أَنِينًـا وَتَحْتَ كُعُـوبِهِمْ صَرَعُـوا انْتِـدَابَا

نَبِـيُّ الْحَـقِّ خَـطَّ لَنَـا سَـبِيلا وَأَوْصَى بِالْمَسَـاكِينِ احْتِسَـابَا

وَخَـصَّ اللهُ شِـيعَتَهُمْ بِعَطْـفٍ إِذَا مَـا عَطْفُكُـمْ عَـنْهُمْ تَغَـابَى

هَنِيئًـا لِلَّـذِي نَثَـرَتْ يَـدَاهُ لَهُـمْ مَـالا وَأَكْـلا أَوْ شَرَابَـا

وَحِينَئِـذٍ تَـرَى حُبًّـا تَبَـدَّى وَدُنْيَـا الْحِقْـدِ قَـدْ أَمْسَـتْ يَبَابَـا

فَـمَا فَقْـرٌ بِبَـاقٍ أَوْ غِنَـاءٌ وَمَا غَـيْرُ الثَّوَابِ تَـرَى صِـحَابَا

وفي قصيدة "الشيطان"[260] يتابع الكيلاني هجومه على ذوي الرفاهية المفرطة، فيقيم مفارقة أليمة بين قلة تأكل حتى البشم، بل ينعم خيلها وكلابها وقططها بصنوف من النعيم، في مقابل كثرة تزحم السكك والدروب بأسمالها المهترئة، ووجوهها المغبرة، ونظراتها الحاقدة المسمومة، وفي الأبيات تأثر جليٌّ عند الشاعر بمهنته "الطب":

شَيْطَانٌ مَنْ يَأْكُلُ حَتَّى التُّخْمَه
يَتَجَشَّـأْ
يَزْدَرِدُ الأَقْرَاصَ لِكَيْ يَهْضِمْ
وَلِكَيْ لا تُسْقِمَهُ التُّخْمَه
شَيْطَانٌ مَنْ يُطْعِمُ خَيْلَه
قِطَعًا مِنْ سُكَّرْ
كَيْ تُحْرِزَ قَصْبَ السَّبْقِ الأَكْبَرْ
شَيْطَانٌ مَنْ يَكْتُبُ لِلْكَلْبِ وَصِيَّه
أَوْ يَسْتَوْرِدُ لِلْهِرَّةِ غُرْفَةَ نَوْمٍ أُورُبِّـيَّه
الشَّارِعُ يَطْفَحُ بِالتُّعَسَاء
بِالأَسْمَالِ وَبِالأَشْلاء
وَوُجُوهٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَه

(260)–ديوان "كيف القاك": 47.

obeikandi.com

نَظَرَاتُ اللَّهْفَةِ وَالْحَسْرَه..
تَنْطَلِقُ سِهَامًا مَسْمُومَه
الشَّارِعُ لَوْحَةُ فَنَّانٍ ثَائِر
مَجْنُونِ الأَلْوَان
مَشْنُوقِ الدَّمْعَه

ولعل مما لـه صـلة بالنقـد الاجتماعـي عنـد الشـاعر، حملتـه عـلى مظـاهر التـدين المغشـوش، والارتكاس الخلقي الذي استشرى في المجتمـع، وهـذا مـا يـتجلى في قصـيدته "الصـوم في زمـن الغفلة"[261]؛ إذ ينظر الشاعر فلا يبصر سوى مظاهر خادعة مـن التعبـد الكـاذب، فالصـوم-وهـو مدرسة للتربية البدنية والروحية-يُفَرَّغُ من جـوهره، ويُتَعَلَّـقُ بـالمظهر المـادي منـه فحسـب وهـو الامتناع عن المأكل والمشرب، وليست الصلاة أفضل حالا من الصوم، فإنها تُؤدى بمظهرية كاذبة، فضلا عن انتشار الأمراض الخلقية كالغِيبَةِ والسكر والعربدة ..وغيرها:

نَصُومُ عَـنِ الأَطَايـبِ وَالشَّرَ-ابِ ... وَنُهْـــرَعُ لِلْمَـــآذِنِ وَالْقِبَـــابِ
وَمَأْكَلُنَـــا وَمَشـــرَبُنَا حَـــرَامٌ ... وَنَسْـــجُدُ لِلْمَطَـــامِعِ وَالرِّغَـــابِ
وَنَخْشَعُ فِي الصَّلاةِ خُشُوعَ ذِئْـبٍ ... فَهَلْ عَرَفَ التُّقَـى قَلْـبُ الـذِّئَابِ
كِتَـــابُ اللهِ نَقْـــرَأُهُ وَنَـــدْعُو ... وَلَمْ نَعْمَـلْ بِمَضْـمُونِ الْكِتَـابِ
نَهِـيمُ بِصُـحْبَةِ التِّلْفَـازِ عِشْـقًا ... وَنَغْـــرَقُ فِي مَفَاتِنِـــهِ الْعِـــذَابِ
وَيَضْحَكُ مِـلْءَ شِـدْقَيْهِ جَلِـيسٌ ... وَتَخْـتَلِطُ الطَّرَائِـفُ بِالسِّـبَابِ
وَلَحْـمُ الأَبْرِيَـاءِ أَلَـذُّ طَعْـمًا ... وَأَشْهَى مِنْ جَنَى الشَّهْدِ الرُّضَابِ

.. وبعد، فتلك أهم الآفاق التي حلق فيها شاعرنا، وفيها-رغم تفاوتها قـوةً وضـعفًا، وعمقًـا وضحالةً-ثراء في الأفكار والمضامين، كما أن فيهـا-إلى جانـب ذلـك-زخمًـا مـن التشـكيل الفنـي والتصوير، وهذا ما ينهض به الفصل الآتي..

([261])-ديوان "مدينة الكبائر": 23.

obeikandi.com